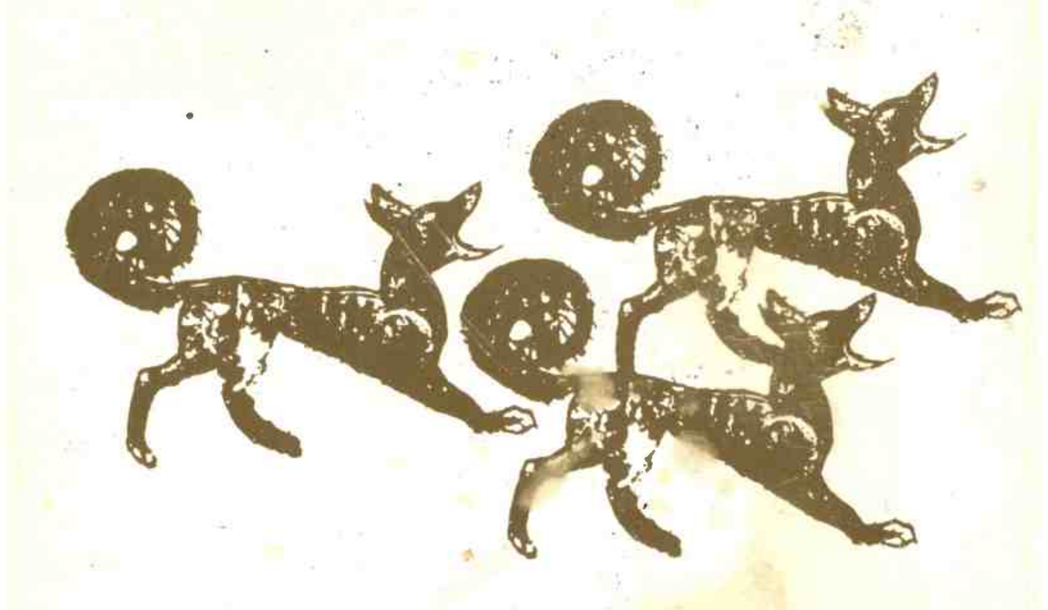
سليم بركات

بالشّباكِ ذاتِها
بالثّعالبِ التي تقودُ الريح



الكلمة
دار الكلمة للنشر

بالشّباكِ ذاتِها
بالثّعالبِ التي تقودُ الريح

سليم بركات

بالشباك ذاتها
بالثعالب التي تقودُ الريح





الكلمة
دار الكلمة للنشر
شارع ليون - بناية سلام . الحمراء
بيروت . لبنان
ص . ب ١٣/٥٢٨٨
تلفون : ٨٠٣٧٤٠

الطبعة الأولى ١٩٨٧

المحتوى

سرآرشت القرشي

فهرست الكائن

الحيوان الأخير

هذا هو أنتَ،
أيها المنتفضُ تحتَ بروقِ الحبرِ. هذا هو أنتَ،
وقربكَ ظـلٌ سكرانُ،
ظـلٌّ مما تلقيهِ الأرضُ، في غروبها، على رغيفِ الكائنْ.

هذا هو أنتَ،
صلبُ كـروحٍ صلبةٍ يرنُّ على حوافها قرعُ عكاكيزِ الظلامِ المائةِ،
وخلفكَ مائةٌ من النساء يطحنَّ، في جُرنٍ واحدٍ، يقظةَ البطولةْ.

هذا هو أنتَ،
دأبُكَ دأبُ المؤرِّخ، لكن تؤرِّخُ المياهَ وحدَها.
بسيطاً تؤرِّخ المياهَ. بسيطاً تُغوي الحبرَ ليتهيأَ الحبرُ لسباتِ الكلامِ،
لتبقى وحدَكَ يقظانَ في حلمِ الحروفِ؛ يقظانَ حتى آخرِ انتحارٍ للأرضِ
قربَ مرآتها.
تهيأْ، إذاً؛
تهيأْ للذي ينثرُ الحديدَ في روحهِ،
ويحرثُ المساءَ بمحاريثِ البحرْ.
تهيأْ أيهًا المبذرُ شموسَهُ،
سيأتي المهرجونَ، وحاملاتُ اليقطينِ اللواتي يمضغنَ الفحمَ بأسنانهنَّ النهريةِ
سيمتدحونكَ، جميعاً، ببوقٍ واحدٍ، كما يمتدحُ الموتى موتهم ببوقِ الظلامِ،

فأنتَ أنتَ، ممتدَحٌ أبداً بشعبٍ سهرانَ على ودائعِ الأنينْ.

تهيأْ أيها المتكىء على الشتاءاتِ،
فغيمٌ لا يستلكَ لا يستلُّ الرعدَ،
وريحٌ لا تهتدي إليكَ لا تهتدي إلى الهبوبْ،
كأنكَ الحانةُ، تغرفُ الأرضُ من يديكَ النبيذَ، وتُفْشي أسرارَ طينها.

ومحبوكٌ أنتَ،
محبوكٌ كالعضلةِ، أو كالجناحِ ؛
مشاعٌ، ووقتُكَ وقتُ رفوفٍ مَن اللقالقِ تعبرُ الهذيانْ.

تُسمَّى،
ومن يُسَمِّك يسمِّ قلبه،
تسمَّى ومنْ يُسمِّك يُسَـمِّ الرئةَ الخفيةَ لأقدارهِ.

هيا،
أَحْكِمِ الأرضَ عليكَ؛
أَحْكِمْ رتاجاتِ الغـضـب الألفَ،
وافتحِ البابَ لتختطفَكَ الصرخةْ.

الفراشة

رفرفي؛ يا مسافةَ القبلِ ، فلكِ ينهضُ الحدادون، بمطارقِ الضوءِ، وتغزلُ النسـاجاتُ بمغازلهنَّ خيوطَ الفصولِ. رفرفي على مدايَ المطوقِ بحماماتِ الصلصـالِ ، فأنتِ شاغلةُ الـدم الذي يتلفَّتُ من مناراتِنا مستطلعاً هزائمَ الدمِ ، وجناحاكِ صفحةُ الكاتبِ المدونِ قهقهةَ الحديدِ. رَفْرِفي، رَفْرِفي.

كنتِ، من قبلُ، خاتمي إذْ يرفعُ العارفونَ خواتمهم، وكنتِ التماعةَ الأرض

على مهمازيَّ إذْ تَحُزُّ الجذورُ مهارَها بمهاميز النعمةِ، لكنْ لا مديحَ في شفتيَّ الآنَ، وقلبي طرقةُ الحاضرِ على صفيحِ الحَاضرِ. رَفْرِفي

رَفْرِفي يا ابنتي، رَفْرِفي
فالبَروقُ تتلمَّسُ الدَربَ إلى جبيني بعكاكيزها.

رَفْرِفي، رَفْرِفي.

الفَقْمَة

أنشـدْ نشيدكَ على صخرةٍ عاليةٍ، واجمعِ الريحَ كلَّها قربَ ثدييك، فأنت تفـطمُ البحـرَ الآنَ، وتهيبُ بالمـرضعـاتِ أنْ «هدهدنَ وليدي على سريرهِ الرملي»، فما مِنْ عويلٍ سيعلو عويلكَ آنَ يأخذُ القطيعَ ذكرٌ آخرُ، وما مِنْ أنينٍ سيواسي الأنينَ آنَ ترى إناثَكَ يتوسلنَ فحولةَ الغريب.
ولينشدْ قطيعُكَ الأنثويُّ، أيضاً، نشيدَهُ؛ قطيعُكَ الذَي يتبعُ الغالبين، وليبقَ الرملُ في زَرَدِهِ ويدُهُ على مقبضِ المياهِ، فبابُكَ إليه، بابُكَ المُفضي إلى جهةٍ أمينةٍ ككلبِ الضرير.

رذاذٌ يبللُ الجلدَ البهيَّ قبل أن ينحدرَ الجسدُ إلى سلامِهِ؛
رذاذٌ يبللُ الأبديةْ.

الحُبَاحِب

العائدون من أعماقِنا يضيئون فوانيسهم الصغيرةَ. نعرفهم، أو نكادُ. عابثون في حُنُـوٍّ، قلقون كالكلامِ، فعلامَ نجمعهم، ثانيةً، في المدى ذاتهِ؟ علامَ نهدهدُ في الأسرَّةِ المُعلَّقةِ شَبحَ الأرضْ؟
إنهم عائدون، أنجزوا الضربةَ بخناجر النبيذِ، ونضدوا الأباريقَ الملأى بعافيةِ

النسيانِ، هاتفين بنا: اجلسوا. هذه أعمارُكم؛ هذهِ صباحاتٌ تتقافَزُ كالقردةِ فوق غصونِ المتاهْ.

حُباحِبُ هُمُ؛
حُباحِبُ أومضتْ في الظلامِ فكسرنا سريرَنا.

الحجل

كانَ ما كانَ: مرحُ سلَّ السفوحَ كسيفٍ؛ مرحُ سلَّ الفضاءَ وأهوى على الأعشاشِ فتطايرتِ الأرضُ سُمانى، ونُحاماً، وكراكيَّ، حتى امتدَّ برقٌ من الطيرِ بين غدٍ ضائعٍ، ومديحٍ ضائعٍ، فقلنا تطايري، تطايري أكثرَ يتُّها الأرضُ؛ تطايري بجعاً، ونِمْنِماً، وغرانقَ، ولتتطاير حولَ ردائك الغضاريِّ سلالاتٌ وحباحبُ من فضةِ اليأسِ، فلنا في النشيدِ أرضٌ أخرى، رخيمةٌ كَغَبْغَبَةِ حجلٍ يستدرجُ الأنثى.

حجلٌ؛
تذهبُ الأرضُ ويبقى حجلٌ في المدى.
حجلٌ؛
يذهبُ المدى ويبقى حجلٌ في النشيدِ.
حجلٌ؛
حجلٌ أُفقُنا. حجلٌ ظلُّنا. حجلٌ بدايةُ الكلامِ. حجلٌ كلامُنا.
حجلٌ، حجلٌ. إشهدي يا مدارج تهوي إذ تهوي الأرضُ،
وأكتبْ أيها اليأسُ بالريشةِ الباقيةْ.

القطاة

البراري تُلقي خاتمها المضفورَ من نشيدٍ وريشٍ على المائدةِ، وتنهضُ غضبى

فينهضُ الغبارُ الوصيفُ، وتنهضُ الحاشيةْ.

البراري تهرولُ في البلاط المغلقِ بأقفالِ الصباحاتِ؛ والبراري تخلعُ قفازَها المائيَّ وخفَّيها المائيينِ، صاعدةً إلى شقيقاتها اللواتي يستعرضن، من المشارفِ، قوسَ قزحٍ سكرانَ، وأعراساً تنسجُ السنابلُ فيها سراويلَ للأرضْ.
البراري تركضُ شعثاءَ، حاضنةً، ملءَ رئاتها، أسِرَّةَ الجذورِ، والخيامَ التي نسيتها الصواعقُ في الحجرِ، غير أنها تتعثر بجناحٍ صغيرٍ؛ جناحٍ مرسلٍ كظلٍّ يغطي الظلالَ بشباكِ النشيدِ، فتلوي على ذاتها، وتوطِّدُ المكانْ.

لا فرارَ الآن؛ لا فرارَ في كلِّ آنٍ:
البراري تتكىء على عمودها الأزرقِ، وقطاةٌ تسردُ المدى.

اللَّقلق

مَنْ للأبيضِ الحزين؟ مَنْ لعشبٍ يعرِّي بناتِ النهر؟ منْ لضفافٍ تسرقُ شمعداناتِ المياهِ؟ منْ للريحِ تتشبثُ بساقينِ نحيلتينِ، ومنقارٍ يلتقطُ الريحَ من بِرْكةِ النهارِ؟ منْ لأنينٍ يرتدي قلنسوةَ العرسِ؟ منْ للربيعِ، شرُطيِّ الفصولِ، الآمرِ باسمِ عذوبةٍ لمْ تكنْ؟

مشعشِعاً كالصرخةِ يرتفعُ الأبيضُ الحزينُ في فضاءِ حناجرنا؛
مشعشعاً كالصرخةِ يرتفعُ الأبيضُ الحزينْ.

الحنكليس

أتذكرُ المياهُ: ذيلٌ يمسُّ الغدَ، وأعضاءٌ لينةٌ تجوِّفُ الحدودَ القريبةَ؟
أتذكرُ المياهُ: أبدٌ رشيقٌ في حراشفهِ الكهرمانيةِ، والأعماقُ الأكثرُ وقاراً تنشرُ

عقود سُبَّحاتها؟
أتذكرُ المياهُ: حركة وزَبَدٌ. ضرباتٌ خفيفةٌ للعضل الجسورِ، والزعانفُ تومضُ في انسيابها فينشغلُ الضوءُ بإرثِهِ من الظلالِ على الصفحةِ الساحرةْ؟
. . .وأنّى تذكـرُ المياهُ؛ أنّى يشغلُهـا بهلوانُ الشعـاعـاتِ مُرسِـلاً سهـامـهُ المضحكةَ؟. وامياهاهُ؛واعريناً من الزرقةِ يضمخُ أشبالهُ برعودِ الملحِ ؛ واقرعاً يقرعهُ الصدى على خوذةِ الأغاني، استحمِّي بنشوةِ الزعانفِ الأقوى، وليني تحت عريكةِ الديكِ الزبديِّ، فمياهُ أنتِ، بلْ نشيدُ الرئةِ الهاذيةِ لهذا المتمايلِ الطريِّ، الراقص كظلامٍ يسلهُ الظلامُ في نشوتهِ المتلألئةْ.

ذيلٌ، وأعضاءُ متصلةٌ لينةٌ،
والحراشفُ تغمضُ على الماءِ جفونهَا فيبتلُّ بالحنينْ.

الخلد

الأعمى، سبيُّ العماءِ المنمق كالأخيلةِ، يتنحنحُ قربَ الوكرِ، كأنما يتنشَّقُ عظةَ الينابيعِ، أو يلهو بمغزلٍ لا يراهُ. لكنَّ السنابلَ ترى، والجحورَ تفردُ لعينيه المغمضتين شراعَ العراءْ.

هادئاً يستطلعُ الغامضَ.
هادئاً يستطلعُ المدى الموحشَ كأعماقهِ الموحشةِ،
والهواءُ ريشتُهُ؛ الهواءُ صولجانٌ، وخيالُ حَسَبَةٍ تترنحُ تحت مهاميزهم الأرقامُ الحامضةُ، فبأيِّ هواءٍ يكملُ الناقصَ؟ بأيِّ هواءٍ يحسبُ صدى الضربةِ التي تزوِّقُ العماءْ؟

الأعمى يستطلعُ من جحرهِ ذاتَهُ المديدةَ كشرخٍ مديدٍ،
مستأنساً بدبيبِ الأفقِ الحفيدِ، وصرخةِ الأرضِ ـ أمِّ الظلامِ الحافيةْ.

العنكبوت

بحلمٍ واحدٍ، وأذرعٍ كثيرةٍ، تخيطُ الأعماقُ فضاءَها؛
وبأذرعٍ كثيرةٍ يشعلُ المساءُ قناديلَ أشباحهِ،
لكن،
هذه الشباكُ، التي تتخبطُ فيها فراشاتُ الأبدِ الثقيلةُ، ليستْ نسجَ حكيـمٍ،
بل نسجُ طـاهٍ يتذوَّق الغيبَ كما يتذوَّق الحساء.

(الطهاةُ لا ينسجون الشِّباكَ
الطهاةُ ينثرونَ توابلهم على الذي في الشباكْ)

ما همَّ، كلُّ ينسجُ خطابَه بالأذرعِ الكثيرةِ الهادئةِ،
والسطورُ تتقاطعُ بالرفيفِ الهادىء لأجنحةِ الموتْ.

الحلزون

حسبهُ أن يكون قريباً من وحشتهِ القريبةِ. حسبُهُ أن يهزَّ قرنيهِ اللينين متلمساً غمامـةَ ذاتـهِ التي تبلِّل غُرَّةَ الظلام. حسبهُ أن يموجَ في ضفاف الصدفة، مُصعِّداً في القشرةِ القاسيةِ زفيرَ الحالمِ. حسبُهُ البسيطُ البسيطُ، الهيِّنُ الهيِّنُ؛ حسبهُ المغلقُ المشدوهُ بالبعيدِ المشدوه.

بيتُهُ معه.
يمضي فيمضي بيتُهُ معه.
مُفَـكِّـرٌ يجـرُّ فكرتهُ الصدفيةَ، ويدخلُها لئلَّا يراها.

الديك

الهرطوقـيُّ، ذو الريش، يدلقُ محبرةَ الضُّحى فوق أوراقنا؛ يدلقُ الضُّحى

بنقرٍ خفيفٍ، كأنْ هو جنينُ الشعاعات الأولى، التي تدلفُ ببغالها إلى الكثيفِ فتديرُ الرَّحَى.

الزيز

رعاعُ الظهيرةِ، الملتفعون بمجدهم القاسي، يوقظونَ بوّاقهم.
(أنفخْ، أنفخْ في بوقكَ أيها الزِّين).
والنفيرُ لا يوقظُ أحداً.
(أنفخْ، أنفخْ في بوقكَ أيها الزِّين).
طواويسُ غاضبةٌ تشقُّ بريشها الظلالَ،
والشجرُ الكهلُ يبددُ الحمى بمراوحِهِ.
(أنفخْ، أنفخْ في بوقكَ أيها الزِّين).

لا لجيوشٍ، بل لكسِلٍ هذا النفيرُ.
وبواقُ المأساةِ الثرثارُ يحبُكُ الغبارُ أدوارَهُ، وتضحكُ من بوقِهِ الظهيرةْ.

الطاووس

مِنْ هنا، من حدائقَ معلقةٍ في الريش، تنفضُ زوبعةُ اللونِ عنها غطاءَها، وتتناثرُ الريحُ تاجاً تاجاً، فما يُرى ليس إلاّ مهرجانَ الغدِ الحُوذيّ في ظلٍّ أمسِهِ الحوذيِّ.

فليبكِ هذا الطائر.
فليبكِ ريشُهُ.
وابكِ، أنتَ أيضاً، يا مدلَّلَ الحاضرِ المتلصِّصِ من ثقبٍ في قفلِ الموتْ.

الفهد

خفيضاً فليكنْ صوتُ الرمادِ في الموقدِ الذهبيِّ لأعمارنا، فبعدَ قليلٍ يمرُّ

الهباءُ المُجَنَّحُ سائقاً بناتِهِ ومريديهِ؛ وبعد قليلٍ يمرُّ الجَليلُ الذي يوازن بين الخطى كما يوازنُ الأفقُ بين ذاتهِ ومرآتها.
بخطىً خفيفةٍ يمرُّ الجليلُ، متشمماً سحابةَ الفرائسِ، كأنَّهُ رئةُ الترابِ، أو المدوِّنُ العارفُ بالذي ينسجهُ الهواءُ من أقاصيصهِ.

أيها الموقدُ الذهبيُّ،
بخطى خفيضةٍ، قربَ أعمارنا الخفيضةِ، يمرُّ الفهد.

العصفور

هَبْني خِفَّةَ المهرجِ، هبني طعمَ خطوةٍ في الجحيمِ الأنيسِ، لأهبَ الهواءَ سحرَ خواتمهِ الخفيفةِ، وليتبرجِ الفضاءُ حجراً حجراً، فبي طَيشُ الماءِ وخفقةُ الشكلِ الذي يقامرُ بيواقيتهِ. وأنتَ، أنت، ذاكَ، يا خفيفاً كمرساةِ الشعاعِ، تقدَّم لألاقيكَ بهبةٍ لا تُعطى، وامتحنْ ريشي بلهبكَ ذي العُرفِ اللازورديِّ، فأنا فكاهةُ الطيرِ، وثرثرةُ الريحِ التي تجرعَتْ نبيذَ أباريقها.

إلى أين تحملني جناحايَ؟
إلى أين أحملُ جناحيَّ؟

ضيقٌ كلُّ شيء،
ضيقٌ كلُّ شيء.

اليعسوب

كغيمةِ ملحٍ ويودٍ؛ كصيفٍ صائغٍ يتملىَّ أقراطَ الظهيرةِ، والحجارةَ الأكثرَ بهاءً في الخواتمِ؛ كبابٍ؛ كرتاجٍ في البابِ؛ كفراغٍ تهبُهُ الروحُ إلى وصيفها؟ كنقرٍ صامتٍ؛ كمناقيرَ تتخاطفُ الجذورَ.. ككلِ ذاكَ، كثقةٍ تُغوي، طنينُ

هذا اليعسوبِ في مضجعِ الملكةْ.
. . . والملكةُ تَستسلم للسيدِ.
والملكةُ تنثُر إماراتها كرذاذ الوميضِ على زَغَبهِ وجناحيهِ، في التحامِهِ الأقصى بسلطانِهِ الذكوريِّ.
وإذ يهدأ رفيفُ الأجنحة؛ الرفيفُ المضمخُ بنُعمى الهباتِ، وبالهمس الذي يبتكـرهُ الجسـدُ همسـاً في انقـلاباتِه الدافئةِ. . . إذْ يهدأ اليعسوبُ، تَدخلُ عاملاتُ النحلِ، فتتناثرُ الذكورةُ وسمسُمُها الخفيفُ؛
يتناثرُ الجسدُ حولَ ثُقْبِ القفيرِ،
ولمَّا تَزَلْ بين زَغَبهِ فتافيتُ شهوةٍ وعسلْ.

الخفاش

ليس لي جراحٌ، ، فالخفيُّ توأمي، وأنتم بقاياي على حافةِ الصباحِ الأخيرِ، وإنْ حرتُمْ فيَّ فأنـا ظمـأُ الرحيلِ، ورنينُ الخطوةِ الفارغةِ في مِلْكٍ يتشبثُ بأشبـاحِ الندامى. . أأسألكم: أيَ شاهدٍ قال عني ما تعرفون؟ أيُّ شاهدٍ اختلطتْ عليه تفاحةُ الغيبِ فألقى عليَّ ظنوناً مما ينسجها ظلُّـهُ المكسور قربَ قمرٍ مكسورٍ؟ هنيئاً لي بغبطةَ تتعالى من فوانيس ذعركم؛ هنيئاً لجناحيَّ بالخفقةِ الساحرة في فراغٍ تحلجونَ قربهُ لهاثَكم كالقطنِ. يالـيَ، يالِـيْ.

طعمُ زبيبٍ وبندقٍ فوقَ لسانِ السهولِ،
طعمُ فِلْزٍ فوق شفةِ المساء،
وهبوبٌ نشوانُ للغامضِ يداعبُ الأجنحة كلَّها؛
وأنا،
خفقةً،
خفقةً، أتسللُ إلى المُطْمئِنِّ لأبعثِرَ كؤوسَ نشيدهِ.

يالِـيَ . . . . . يالِـيْ.

ليس لي جراحٌ، والنهارُ أيقونةٌ تتدلى على صدرِ توأمي المقتولِ .

الثعلب

مجرةُ الأغاني تبسطُ فراءَها للمجراتِ، فاقتربوا، أيها المختالون، بفخاخكم الزرقاءِ، لتتصيدوا يمامةَ الحيلْ.
لكن، بأيِّ أحبولَةٍ ستأسرون هذا المهرقَ كالقهقهةِ؟ بأيٍّ ستأسرون الرخيمَ مثلَ الانشاد للمياهِ؟ ليكنْ. خذوه، خذوا الطائشَ الجميلَ، فهو قرعُ الحكايةِ على بابكم . . . إيهِ، أكانتْ لكمْ حكايةٌ قبلَ أن يمسَّ بذيلهِ الحكايةْ؟

تبدِّدُوْنَهُ فيبقى.
تبدِّدُوْنَهُ فتبقى يمامةُ الحِيَلْ.

الحمار

آن يتخذُ سيّافُ الغيب كمالاً ككمالِ الظلام ، وتركعُ الرياحُ الأسيرةُ، تغرورقُ عيناكَ، يا هادئاً ترى الذي ترى، وتكفيكَ من الأبدِ قضمةٌ واحدةٌ، فلماذا تأسى للوقتِ، ولماذا تضربُ بحافرِكَ على رخامِ بطشنا؟

يا حمارُ،
يا جدالَ الكسلِ المُرْبكِ، تلفَّتْ بعينيك الناعستين إلينا، وأطبقْهُما، فإنكَ لن تظفر برؤىً مثلنا قط؛ رؤىً تمضي على زحافةٍ تجرُّها ديكَةُ الثلج . يا حمارُ، يا شظايا كأسٍ ارتختْ يدُ النّديم عليها فهوتْ في الفراغِ مائة عامٍ قبل أن تتشظى، آضربْ بحافرِكَ، آضربْ بأذنيكَ، آضرب بالكَسلِ المُرْبكِ هذهِ اليقظةَ السارحةَ تحت خوذاتنا، واغْفُ، فقدْ أغفى الوقتُ ـ ترجمُانُكَ الغاضبُ.

وديعٌ أنتَ، وتغرورقُ عيناكَ.

الغراب

أنـا صفـيرُكم، أنـا الخزفُ المتناثرُ من فوهةِ الأغاني، شقيقُ الهزائمِ كلِّها، شقيقُكم، أضعُ بيضيَ في أعشاشِ الرئاتِ، وأُغطي الجساراتِ بالريشِ.
أنا... آه، كمْ مَلَكٍ مَرَّ بي، كَمْ أَساطيرَ، كَمْ نهايةٍ. لا غدٌ لأحدٍ، غدي ضربةُ الرَّاعي بعصاهُ على تيسِ الجهاتِ، فإمَّا شردتْ جهةٌ عادتْ إلى أحابيلها.
ذَرُوْني إذاً. ذَرُوْني وهدأة الروحِ المشقوقةِ كلحاءِ الشجرِ، وابتعثوا المكانَ يجيء إلـيَّ بحوصلةٍ مُرَّةٍ، فعلى المائدةِ مُتَّسعٌ للهباءِ كلهِّ.
أنا،
أنا،
لا انهدامَ إلَّاي. شققتُ مسافاتكم فتهدَّلتم من الشقوق سلالاتٍ ترفو الغمامَ والثلوجَ؛ وأمعنتُ فراراً بجنـاحيَّ فتـطايرتْ ساعـاتكم في ظليَ كالريشِ.
خرابٌ إذاً. هدأةٌ للخرابِ. وأنا الصَّخبُ المهرولُ في الحروفِ كلِّها.

غُ رَ ا بُ ... آهدأوا.

النسر

أهو وصيُّ الأقاصي يدوِّنُ مديحَ الأقاصي، أمْ سَهرُ الريشِ على حجرِ المكانِ؟
لا يا سَهَرَ الريش، لا واسعٌ أو مديدٌ إن تراءى من جناحٍ؛ لا جَناحُ لو لَمَ يفق الـواسعُ المديدُ. وأنتَ، عالياً، على أيِّ حالٍ، تغزلُ الخيالاتِ، وفي ظلِّك يتـماوجُ الصلبُ. مُرَّ، واخفِقْ كنبضـةٍ في الغدِ العالي، غدِ العاصفةِ وَحْدَها آنَ تقرعُ الفراغَ القديمْ.

مُرَّ، لا:
فليَمُرَّ الفضاءُ الحيرانُ في ظلِّكَ المُحيِّر،
وَلْيَخْلَعِ المرئيُّ مهاميزَ عِصيانِهِ.

بيروت - ١٩٨٢

الحديد

ربما ذكَّرني الوردُ بنفسي،
ربما ذكَّرَ بي الوردُ رمالاً حُزِمَتْ كالنَّفسِ
قبل أن يُطْلِقها البحرُ متاريسَ، ويأتي بسدودِ.
ربما ذكَّرني البحرُ بإطراقتهِ
حين أطرقتُ، وأفضى بي إلى ماءٍ طريدٍ:
كلُّ منفى صحوةٌ، فاكتملي
يا جهاتي بكمالٍ نزقٍ،
واكتملْ يا رعبُ؛ هل باركتَ أنقاضي برعبٍ ثَمِلٍ؟
ربَّما. لا . يا حديداً
مُترْفاً كاللَّهو، لاهٍ بالحديدِ
باركِ الفِلْزَ الذي يصحو على فِلْزِ نشيدي.
يا حديداً مَرَّ بالبالِ فأصغى البرعَمُ الصَّلدُ لتاريخي إليهِ
وتدانى ظلِّيَ اللاَّهي لكي يُلقي عليهِ
حفنةَ الريحِ التي ألهمتِ الحيَّ بلاغاتٍ. كأنْ مِنْ ثمري هذا: رنينٌ صاعدٌ
في الجذرِ، أقدارٌ، وحمى حجرٍ. لا بأس، ماذا يا حديدُ؟
مَرَحٌ ينسجُ ميعادي، ويُفلي، ويُعيدُ
فكأني هربٌ. قُمْ يا ظلامُ. آجتهدي يا شجراتُ
واقرأي يا ضربةَ السهلِ سفوحي:
طائرٌ هَذَّبَ ينبوعي، وآوتني مهاةٌ
فغدي يصحو وقد طوَّقهُ شرقانِ: هذرٌ، ووعيدُ.

آهِ كَمْ كان يعيدُ البرقُ ما أنسى، وينسى فأُعيدُ.

يا حديداً مُشرِفاً مثلي على الحيِّ تُراكَ انبجستْ أيامُكَ الدِّفلى فغطَّيتَ مدى

الحيِّ، وألهمْتَ مديحي
أن يكونَ الساهرَ الممسكَ بالأنقاضِ ؟ أن يُمْهِلَ ما لا تُمْهِلُ الأرضُ؟ كريحٍ
سَيُقادُ الماءُ في نهبٍ، ويعلو غامضٌ في كل عيدِ.
يا حديداً كالحديدِ
يا مدى بَوْحٍ يسمِّى كلَّ بوحِ
فلتكنْ في غَمْركَ الحــلو صنوجٌ، ولأكنْ باباً إلى الصَّلْدِ الذي يُعطيكَ مجدَ
المعدنِ الحيِّ: سأرْفَضُّ كَلَمْعٍ، وسيأتي الأزلُ
هازلاً بعدي، وبعدي
ككتابٍ سوف يُسْتَقْرَا الغدُ المُرْتجلُ.

يا حديداً كأنيني.
يا حديداً يقرعُ الحاضرُ شُبَّاكَ النَّبيِّينَ بهِ.
يا حديداً بَعْدُ لم يُمْتَهَنِ
لَمَديحٌ ليس يستنفدُ ما يَجعلكَ الآن إلهيًّا. جبيني لك، أو عذريَّةُ الماء الحصينِ.
يا حديداً. . . إيهِ، كم جذرٍ سيستوقدُ من جذركَ أعنابَ رفاهٍ،
وكَم الصاخبُ قد يستلُّ من وهْجكَ أقمارَ السكونِ.
لُعَبي كونٌ، فإنْ مرَّت بي الريحُ اقْتصِدْ بي في هبوبي
فَلِمَنْ أمحو ثُريًّا لهبي الهاذي، ومِلْكي، وشعوبي؟
ليْ يقينُ المُهْلةِ الأكثر فضْلاً،
وليَ الأبقى مِنَ الفجرالأمينْ.
وحديدي أنتَ. هل يَكْبرُ بي إلَّا حديدٌ؟

غير أني ممعــنٌ في شأن ما لا شأن يُغــويه: شظايا حملتْ حلمــي إلى تلك الشظايا، وتفجَّرْتُ فأغلقتُ كتاباً كانَ. ما مثلي سوى الضربة إنْ رنَّتْ ترامى ضيِّقٌ، إنْ رَنَّ قبري في القبـورِ اتَّسَعتْ. صنـجُ هوايَ. ابتعدي يا ريحُ.
أنقاضٌ تحتُّ البحر أنْ يجثوْ، ومهْدٌ يركضُ
بوليدِ الماءِ، فالأيامُ نَسْلُ عَرَضُ.

ولأني. . . أين من آنٍ أحاذي جمهراتِ الرعبِ كي يشتغِلَ الرعبُ بأقداري .
أرعبُ بعدُ؟ أمهلتُ الشظايا
ساعةً، قلتُ: استعيدي
جسدي عُرساً، وفيضي بالهدايا .
ولأنيِّ . . . ليت يا الآنُ أغنيك كحبرٍ غمَّستْ أقلامها الأسماءُ فيه .
ليتَ. . . ما هذا بتيهِ
بلْ نبوءاتٌ تقلَّبْنَ على مَخْدَعيَ المائيِّ فاستشرفتُ في الموت هوايا
وتزيَّنْتُ بأسراري التي تغسلني
كشهيدٍ، وحملتُ الجسدا
غافلاً عما تهاوى منهُ، مشَّاءً به، مُتَّئِدا .
ولئِنْ أسرفتِ الأجرامُ في نهبيَ، فالأشياءُ تعدو
بي، وترفو الريحُ ذاك البَدَدَا

يا حديدي، أنتَ، يا الهذا بثدييكَ على أفواهنا
سنروِّيْكَ، التقطْ أثداءنا:
كـلُّ موتٍ سلَّةٌ مثقوبةٌ،
كلُّ غيبٍ درجٌ ينزلهُ الغيبُ إذا ما ابْتعدا
فكأنْ دورةُ هذي الروحِ لا تعرفُ إلَّا موجَنا
وكأني ـ يا الهباءُ الثَّمِلُ،
يا ثُمالاتي التي تهُرقني
مثلَ حبرٍ غمَّسَتْ أقلامَها الأسماءُ فيهِ،
وارتداهُ الأزلُ ـ
موشكٌ أن أبعثَ الأنقاضَ في هيئة ما ليس بأنقاضٍ، واسترسلَ في نجوايَ:
طينٌ مدني. طينٌ أساطيريَ. بحرٌ قال ما لمْ يقُلِ الشعبُ. «ألا تعترفين الآن؟
ماتت ـ يا فتاتي ـ أمَّهاتُ النبعِ، ماتَ التَّيْتَلُ الأخضرُ. شمديْنُ تهاوى مرةً
اخـرى على باب الحكـاياتِ. عروشٌ وملوكٌ بقيتْ. تعترفينَ؟ اعترفي مثلي
بتاريخٍ غشتْني سَوْرةٌ منهُ فلم ألمحْ سوايْ.

كان تاريخاً هنا،
واقفاً كالكلب قدّامَ السرايْ
كان تاريخاً، وقدْ زيّنتُهُ ـ
أو توهّمتُ ـ بشعب، فإذا البحرُ سلاحي ويدايْ
وإذا المنفى الذي يُشْهرني يُشْهرني
مِزَقاً في رمحِهِ العالي. فتاتي اعترفي». لا . موشكٌ أنْ أُغْرِقَ البحرَ بمدحٍ .
موشكٌ أن يقتفي الماءُ رغيفي كعصافيرَ، وأبنائي يشدُّوْنَ الصَّواري
بقلوعٍ ، أو يرجُّونَ المجاذيفَ التي ضمَّخها
عَبَقٌ من غديَ الفاتحِ . عودي كحصارِ
يا غواياتٍ رميتُ القلبَ في خوذاتها،
وتغاويْتُ. ألا يجمعني
غيرُ منفايَ؟ ككلبٍ يقفُ التاريخُ إذ يُشْهرني المنفى الذي يُشْهرني
وانا العَنْدَمُ، بل ريحانُ ما ينبضُ في هذا الغبار
فالمواعيدُ مواعيدي، وما من خبرٍ إلّا تناهى خيطُهُ من كفني.

. . . والحديدُ العذبُ ينسابُ. أَعُمْرٌ يا حديدُ؟
هَزَّني السرَّوُ قليلاً، هزَّني الشُّوحُ، والْوى
حلميَ الصفصافُ فانداحُ النشيدُ:
كمْ رعتني القُنبلةْ
كيتيمٍ؛
كمْ بكتْ حولي العماراتُ بكاءَ السنبلهْ
واستظلَّتْ بي متاريسُ، وآواني ا لبعيدُ.
أأبٌ، إبنٌ أنا
للمسافاتِ؟ أمِ الحاضرُ غمدُ الزَّلْزَلهْ؟

صعترٌ بابي. رأيتُ الماءَ في هيئةِ سيفٍ
كُلّما أهوتْ به كفٌّ عليّْ

عُذْتُ، في النشأة، ميراثاً من الزَّهْرِ الحَييّْ.
غير أني حين أهوي بسيوف الماء تنهارُ بلادي:
ضربةٌ تُحيي بلادي،
ضربةٌ أخرى تُميْتُ.
شَرَكاً كانتْ كمثلِ الله، تنهدُّ فتنهدُّ جيادي.
وكبابٍ مغلقٍ كانتْ أمامي وورائي
يفتحُ المنفى لِيَ الأفقَ فأرمي درعيَ الأخضرَ للمنفى، واسْتصرِخُ ماءً فيُنَجِّيني
بماء فإذا ما التفتتْ عيناي للباب غشاني الظُّلموتُ:
ضربةٌ تُحْييْ إذاً،
ضربةٌ أخرى تُميْتُ.

يا بلادَ الرعبِ كم كنتُ وحيداً.
يا بلاد الرعبِ كمْ أسرفتِ في قتلي فأمسى قلبُكِ الأبكمُ كالجرحِ وحيدا.
أأبٌ، إبنٌ أنا
للمسافاتِ، فلا أعرفُ إلَّا خشبَ المنفى حديدا؟.

فليكنْ. أغلقتُ تاريخي كما يُغْلِقُ حوذيٌّ على الاسطبل، واسترسلتُ في نجوايَ: بيتي كانَ في الحيِّ كبيتٍ، يردُ المُتعبُ ظلًّا في كراسيهِ، ويُلقي رأسه للشرفةِ البكماءِ كي تمزجَ بالاهداب غيماً، وعماراتٍ يلوح الأفقُ في أهدابها نهْباً لفأس المعدن العاري. وبيتي كان بيتاً في حصارِ الروحِ، آواني من العُزلة، آوى الليلَ من فجرٍ جحيميٍّ. وكانتْ قُبرَّاتُ الطين ترميه بأعشاشٍ من الدمع، ويصطادُ الفراغُ العابثُ الأشياءَ من إسمنْتِهِ.
وأنا في سَمْتِهِ
آيةٌ كالنَّرْدِ، أُلقي بي إلى الأعماق حيثُ العُمْقُ صوتي.
كان بيتي رحلةً كالظمأ الحلوِ، وكانْ...
أينَ بيتي؟
كسرَ الكأسَ على هذا المكانْ

واغْتَلى حتى تشظَّى
فالندامى حجرٌ من حولهِ، الآن، أساساتٌ تهتَّكْنَ فعرَّيْنَ البيانْ.

سوفَ أستوفيكَ يا بيتُ من الأقدارِ كالفاتحِ يستوفي الجباياتِ. سأستوفيكَ باباً أزرقاً، سقفاً من القصديرِ، أدراجاً جُماناً:
[ستكونُ المكتبهْ
قربَ هذا البهوِ، والمدفأةُ
في جدارٍ ربما يعلوهُ رَسْمٌ قَدَريٌّ،
أو تصاويرُ حديدٍ. وهنا الزاويةُ
سوف تَزَيَّنُ بالنَّبْتِ. وقربَ العتبهْ
بعضُ سجادٍ، وفوق النافذهْ
تتدلىَّ سُترٌ ملتهبهْ...].

سوفَ أستوفيكَ يا بيتُ. أما مِنْ حجرٍ
يهتدي بي، ويهُديني إلى تأويلهِ الصاخبِ للبحرِ. أما مِنْ حجرٍ؟
حمل البحرُ مراياىَ إلى أقدارهِ،
ورمى بالسَّفرِ
مثل عنقودٍ الى دالية الرملِ. أرَمْلٌ سوف يهُديني إلى تأويله الصامتِ للبحرِ؟ اشتعـلْ يا ربُّ، هذي «خلدةٌ» الـدِّرع. نَبيُّونَ يجسُّـونَ خراف المـوج في «خلدةَ»، أنقاضٌ تعيدُ السِّيرةَ الكبرى لِخَلْقٍ ذاهلٍ. بوْحٌ نحاسيٌّ. مرايا.
حملَ البحرُ مراياىَ إلى أقدارهِ،
فجثا كالطفلِ يستلُّ من الرملِ رُؤايا:
[خُفٌّ. ذا تيسٌ حديديٌّ. تعمَّدْ ببريقِ القاذفِ
واعبرُ الشاطىء كالبهو إلى ضوءِ بلاطٍ،
حيثُ يقتادُ الملوكُ الأرَضَ تحت السَّعفِ].

مثلَ عنقودٍ رمي البحرُ بأيامي، فالقيتُ إلى البحرِ بجمْعٍ مُترْفِ:

أُبهيُّوْنَ، حِرابٌ ثَمَّ، أشكالٌ كما نُخبٍ سماويٍّ تهامَسْنَ بهِ
أمهاتٌ لم يُرِدْنَ البحرَ إلاَّ خاتما
وتوشَّحْنَ وشاحَ الوقتِ، فاسْتَدْنَينْ وقتاً عَدَما
فإذا ساءَلْتَ: هل من جهةٍ؟
قُلنَ: آتتنا جهاتُ الروحِ خبزاً عَنْدما.

يا فراغاً غنمتهُ الروحُ كُنْ
هندسيًّاً يا فراغُ.
خرجتْ أنقاضُنا من سرِّها،
وتجلى الأبدُ الثرثارُ قِرْطاً هزَّهُ في الغيمْ زاغُ.
يا فراغاً جفلتْ منه عذاراهُ، استَبقْنا يا فراغُ:
إنَّـهُ طاووسنا الرمليُّ في «خلدةَ».أرضُ الأرضِ. ميثاقُ مياهٍ. ثَبَجٌ كالجوهرِ الغاضب. غمْـرٌ مَرِحُ
فتشَّبثْ يا مدى الله بأكفان وميضٍ:
كـلُّ ذعرٍ يرتدي الآن دروع الفجر، والبحرُ الذي يلهثُ بَحْر شَبَحُ.

[كان في «خلدةَ» متراسٌ من الأُفْق،
وفي الأُفْقِ سرايا من مداراتٍ توزَّعْنَ القُبَلْ:
شفةٌ تنقضُّ كالليلِ على حَلْمةِ هذا البرقِ،
أيدٍ تخطفُ الصخرَ كأقراصِ عسلْ.

كان في «خلدةَ» ما كان: امنحيني سُتْرتي،
وحذائي،
وسلاحَ التوأمِ الأكبر؛
هاتي بالجساراتِ كرُمَّانٍ، ودُلّي ـ
كي تَمسَّ الذَكرَ البحريَّ في المكْمَنِ ـ عذراءَ الأزلْ].

يا فراغاً. . .

منجنيقاتٌ تدكُّ الفجـر بالنـرجسِ ، والحلمُ حديديٌّ : هنا رأسٌ كبيروتَ على
صحنٍ ترابيٍّ، مدارٌ، وسلالٌ أحملُ الشرقَ على ظهري بها :
[هل تلصَّصْتَ عليَّ
يا إلهي ، من كُوى الطينِ، وأرخيتَ الغبارَ المرمريَّ
فوق ثدييَّ الذُّكوريَّينْ؟] . اطفالٌ هنا ،
أجمعُ الأشلاء حتى أتخطَّاها إلـيّ
فأرى جسميَ ينبوعاً، يكادُ البحرُ أن يلمس من ذُعْرٍ بقايا شفتيّ .

خبئيني يتُها الأقمارُ في سُنْدسِ هذا الغضب المُوصَدِ . خبِّىء أيها الرملُ لهاثي
في متاهاتكَ، فالموجُ مضيءُ، وعلى «خلدةَ» أهدابٌ كأهدابي إذا ما انغلقَتْ
رفعٍ الماءُ خياماً لجيوشي فوق ثدييه : [إلهي
غُضَّ طرفاً عن أحابيلي ، فإنيِّ كالمتاهِ
أغسلُ الفجر كما الخوذة حتى أتغاوى
قربَ هذا لموت] . . . آهٍ يا محاريثَ غمامٍ ورفاهِ
شفِّفي الأبعدَ ، فالأبعدُ أعضائي التي أسْلَمْتُها
للأساطيرِ، وفي «خلدةَ» أسلمتُ الأساطير الى لهوٍ، وحَبَّكْتُ الحِيَلْ :
[كان في «خلدةَ» تيْهٌ وثَمَلْ
ومرايا يتخطَّى البحرُ آمادَهُ فيها
موشِكاً ان يُمْسكَ الشَّكلَ ، ويصطاد الجبلْ] .

خبئيني يتها الرَّوعهُ في رملٍ ، حديدُ نَفَسي
ولنبضي زَبَدُ
ساحَ في قلبٍ من الآجرِّ مَكْبُوبٌ عليه الزَّردُ
فإذا كاشفتُ حرباً بمغاليقي استجارتْ
بحروبٍ ، وانبرى كلُّ شرُوقٍ يَرِدُ .

هكذا عينايَ ، واحْلولى غدي .

عجِّلي وابْتَرِدي
شُهُبَ الماءِ بذوبٍ من حديدٍ عسلٍ ،
وخرابٍ عَسَلٍ ؛
عجلي وابتردي .
لِحِصاري سرُّهُ،
ولنهبي من جساراتٍ تطاوَلْنَ كسرْوٍ سرُّهُ،
ولأبعادي حفيفُ الأبدِ .
فليكنْ ما كانَ . شَقَّتْ عن مراياها الثواني ظلَّ هذا العدم الضاحك، شقَّتْ موجةٌ اثوابها، وانحسرتْ ظمآى . (على «خلدةَ» رفٌّ من قطا ضلَّ سهولَ الأرضِ . هلْ «خلدةُ» أرضٌ خسرتْ هذا الفضاء الرحْب كي تربحَ من شوقٍ قطاها كفضاءٍ؟) .
لا تكن يا موتُ مثلي عاكفاً في قلمٍ يسْطُرُ، والحبرُ حديدٌ .
لا تكنْ يا موتُ مثلي عاكفاً في ذهبٍ ينثرهُ الموتى على النبع الجحيميِّ . هنا «خلدةُ» . (رفٌّ من ذباب الأزل ارْفضَّ عن الجرحِ السماويِّ) . هنا «خلدةُ»
قُمْ يا غضبُ ؛
قُمْ بكهَّانِكَ، أعلى من حنينٍ،
مالئاً كفَّيكَ بالعنبرِ والماسِ ، ترابيًّا، تعضُّ الشُّهُبُ
نارَها الخرساء من حولك . قُمْ يا بحرُ، قُمْ
صَنماً بعد صَنَمْ
وشعوباً أيقظتْها زُرقةُ المَدْحِ الذي نَمَّ به المُرْتَقَبُ .

. . . وحديدٍ . رُبَّ سربٍ من غزالاتيَ نقَّرْنَ على الموجِ الحديديِّ بأظلافِ حديدٍ، فتفَاجَّ البحرُ: ذُعْرٌ بعد ذعرٍ . أيْكَةٌ من زبدِ الخَلْقِ . رمادُ خرزُ
كلُّ ذا في صرخةٍ واحدةٍ،
ونفيرٍ يتشظَّى البوقُ من إعْوالهِ .
كلُّ ذا رمانَةٌ فتَّقَها الغامضُ؛ لا ، ذا كَرَزُ
نثرتهُ القبضةُ الأشهى على ثدي ٍ. . . حديدٌ، أينَ مِنْ أحْوالهِ

هذه الرعشةُ في كفّيَّ؟. (وا «خلدةُ» شُدّي رَسَنَ الرملِ قليلاً يخْفُن الرملُ منـاراتٍ تنـاثـرْنَ، وأشكـالاً كَسَتْ أقـدارَها بالبحر). عينايَ على البحرِ، وأعضائي مضيقُ:

[سقطتْ شُرفتُنا
من عَلِيِّينْ، وطارتْ جارتي
كدخانٍ. حمل الشارعُ عكّازيْه للملجأ فاجتاحَ الحريقُ
ملجأَ الشارع. طفلٌ مَرَّ بالبابِ، ومن خلفهِ مرَّتْ أُمُّـهُ
فَكَسَتْ أشلاءَها أشلاؤهُ.

سقطت شُرفتُنا
من لغاتٍ لم نكن نعرفها
سقطَ العالمُ من شرفتنا
في لغاتٍ لم نكن نعرفها،
فاستعانَتْ جارتي
بثُقَابٍ وهي تُؤوي موتَهُ في موتِها]

إنها أسماؤهُ؛
ذاحديدٌ، وهي ذي أسماؤهُ:
من رمالٍ تَصْهرُ الأعماقُ كالوقتِ فَماً
فيلاقيها بأثداءٍ تجلَّتْ حولَهَا أثداؤهُ.

يا لأسْماءٍ. أعيني ضربتي يا أمُّ في «خلدةَ». بأسٌ مثل بأسي يصعدُ الأدراجَ من مَكْمَنهِ البحريِّ. بأسٌ يعقدُ الشاطىء كالسُّتْرةِ من أزرارهِ البيضاءِ. في «خلدةَ» يا أُمُّ أَعِيْني حجري الأبيضَ كي يهوي ثقيلاً، وأعينيني لأمضي نحو ريحانةِ هذا الماءِ آنَ الرملُ يَشَّبَّثُ كالأنثى بُخفِّيَّ، ويغدو النَّفَسُ ضيِّقاً من حَيرةِ الروحِ. غداً تنبجسُ

ملءَ نافوراتيَ الأشكالُ حتى
يغدوَ الرملُ ظلاماً بجناحين؛ فمن يلتمِسُ ـ
في رمالٍ لم تَكُنْ ـ سطوتَهُ؟. الآنَ أنا والبحرُ. لا شاطىء، لا برَّ، غُدَافُ يصلُ
الموجَ بموجٍ، وسنونو
يحملُ الأفقَ إلى أعشاشنا
فاعينيني على الضرَّبةِ يا أمُّ بموتٍ لا يخونُ.

[مضتِ الطائرةُ الأولى، وعادتْ أُختْها
حين طارتْ شرفتي
فنزلتُ الدرجَ الأبكمَ محمولاً على الذُّعْر، فسدَّتْ جارتي
ببقاياها عليَّ الدرجَ الأبكمَ: هاكُمْ ثديَها
لِصْقَ بابِ المصعدِ، الفخذَ هناكْ
في زوايا لَم تعدْ إلَّا زوايا،
وعلى السقف بقايا
من حذاءٍ شدَّهُ كالصَّمْغِ لحمٌ. وإذا...
ما هَمَّ إنْ كان «إذا» أو كَانَ «ذاكْ»:
مِزَقٌ من كَبدِ الحاضرِ تحبو،
وملاكٌ أحمرٌ يلهو بأحشاءِ ملاكْ]..

كم تشبَّثْتُ بأعضائي التي سالتْ كماءٍ،
فإذا تجرفُ اعضائي يديَّ
وإذا بالهاويهْ ـ
حيث عمرٌ من فراشاتٍ ـ تقودُ الأُبهَّيَّ
صوبَ رعبٍ حاصرَ الحاضرِ بي.

أأنـا الـرعبُ؟ مديحاً هاتِ يا رعبُ، بغـالاً ومحاريثَ، فإني دافعٌ «خلدةَ»

كالطاووسِ في غابةِ هذا الزبد الشمسيِّ. ما الغابةُ؟ أقواسُ قُزَحْ
تقرعُ البابَ، ولكني أسيرُ الخدرِ الآتي من البأْس، وقلبي ذهبٌ، عُمريَ بَوْحٌ
ذهبيٌّ.
أعْتِقِ الحاضرَ بي..
أعْتِقِ الحاضر بي،
يا نشيدي، واعْبرِ الماءَ إلى هذا المَرَحْ.

كم تشبَّثْتُ بأعضائي التي سالتْ كماءٍ،
فإذا يجرفني الماءُ الى «خلدة»: وارملاهُ حُثَّ الضربةَ الأبهْى لتبقى الآنَ أبهْى،
واختمِ الرعبَ بختمٍ أشقرٍ، فالأفقُ سَيَّافٌ، وهذا الظلموتُ الحيُّ يعدو
كَسُلُوقيٍّ على الشاطىء. وارملاهُ أحْكِمْ رِمْيَةَ الراكضِ من نرجسةِ الأرضِ
إلى حُلْم المياهْ.

[مَضَتِ البارجةُ الأولى، وعادتْ أختُها
فتلقَّاها العُراهْ
بحديدٍ لينٍ كالروحِ] هل كان الإلهْ
أزرقاً يا ماءُ كي يحضرُ هذا الهَرْجَ محمولاً على ثيرانهِ الزرقاءِ؟ كمْ هرطقةٍ توَّجَتِ
البحرَ فأجفلنَ مراياي يرابيْعُ استطارتْ من ضبابِ البحر. عهدي... أيُّ
عهدٍ لكَ يا ماءُ؟ مديحي أشقرٌ كالصَّاعق. الشَّاطىء جَرَسُ الهمسةِ الأولى
لحربٍ هرولتْ ثيرانُها بالرملِ، بالأرضِ التي تُشهِرُ من رملٍ سيوفَ التَّرفِ.
أيُّ عهدٍ، وأنا ابنُ الخَزَفِ
أتقرَّى الروحَ في تأويلها
فأراني كالجهالاتِ مُضَاءً بغدٍ مُرتجفِ؟
وأراني... من يرى الحاضر مُرْخَىً فوقَ ثدييهِ كَشَعْرٍ ثُمَّ لا يستلُّ مِشْطَ
الأُفقِ؟ بطٌّ زبدٌ حوليَ؛ ديكٌ وإوزَّاتٌ من الماء، دجاجٌ حجريُّ الريشِ؛ سُورٌ
وسياجاتٌ: أنا مزرعةُ الله، سترعى عشبيَ الارحامُ كالماعزِ، غيمٌ وخنانيصُ
دمٍ زرقاءُ ترعى جسدي الأزرقَ. واليومَ الرُّعَاةُ

سوف يقتادون ماضيَّ ككبشٍ
بأتانِ الحاضرِ المُجْفَلِ . لُمّي يا حياةُ
زردي المنثورَ، لُمّي خُوَذَ الموجِ التي بَعْثَرْتِها
بجناحيَّ ، فريشي ورقٌ يغسلهُ ماءٌ أجاجٌ ثُمَّ يَسْتَدْرِكُهُ الماءُ الفراتُ
وأنا . . أين أنا؟
أغمضَ المنفى جفوني فتفتَّحْتُ متاهاً ليسَ يُحْكى :
كلُّ منفى يُسْلِسُ الغيبَ الذي يقتادُهُ
نحوَ حِبري ، وإذا الحِبر تشكّى
رَسَتِ الريحُ ببطشٍ ، أضحكَ الماءَ وأبْكى .

[في حزامي قنبلهْ
تتدلّى ،
وعلى سطح العماراتِ سماءٌ تتدلّى
مثل إحليلٍ من الضوءِ ، فيا هذا المدى
لا تلُمْني إنْ توسَّطْتُ عذارايَ بوَمْضٍ وشظايا
ضمَّخَتْها عُذْرَةٌ كالآيِ تُتْلىَ .

في حزامي قنبلهْ
جعلتْ زَمْزَمَةَ القُبْلَةِ أعلى] .

واحديداهُ. . .

[تهاوى جاريَ الأعرجُ قربَ الدَّرجِ
فتراكضتُ إلى أطفالهِ
عَلَّني أوصدُ بابَ البيتِ كي لا يلمحوهُ
غير أني لم أجدْ من ذلك البابِ سوى أقفالِهِ
وسكونٍ يتمرأى في حُطامٍ لَزِجٍ] .

من أنا؟ أمسكتُ أنقاضي كفانوسٍ ، فدارتْ حوليَ الأيامُ في أسمالها تقرأ ما يسقطُ من خوخٍ وتـينٍ. حاضرٌ بي حاضرُ الفِلْز. حديدٌ يتعرَّى. من أنا؟ فانوسيَ الرملُ أضاءتْهُ مياهٌ. وامياهُ انحسري عن خصيَتيٌّ
هذهِ الأرضُ فروجٌ،
وأنا السَّهمُ النَّبيٌّ.
ليَ منفاي، فمنْ أين بلادي سوفَ تستحضرُ منفاها؟. عويلٌ يضربُ الشرقَ بغصنٍ مرمريٍّ.
والمسافاتُ التي أغلقْتُها
بغباري، تفتحُ الماءَ عليٌّ
فإذا بي هجرةٌ يودِعُها البرقُ بيوتاً وعذارى.
وإذا بي... واحديداهُ ارفعِ العاصمةَ، الآن، إليكْ
بخطاطيفٍ من الشعْرِ، وبعْثر هذه الأقدارَ كالقمحِ عليكْ.

واحديداً من دُعاباتٍ وهمسٍ،
واحديداً يُـؤْكَلُ، الآنَ، على مائدةِ البحرِ، حديداً غافلاً عن شهوةِ الغيبِ؛
حديداً كابتهالِ الشجرِ الأعمى إلى الكاهنةِ العمياءِ في خُضرتِهِ؛
واحديداً ثرثرَ التاريخُ في حضرتِهِ
بكلامٍ صَدِيءٍ،
رافعاً نجوى من الملح ومن قهقهةِ الرملِ إليهِ؛
واحديداً ضمَّ في شهوتهِ
جُندبَ الفجرِ، اختطِفْنا بيدٍ زرقاء، كُنْ عيدَ نباتٍ، وادفعِ الحاضرَ كاليقطينِ يَدَّحْرَجْ حَثيْثاً من غدٍ لاهٍ إلى لاهٍ سواهْ.

[كنتُ في ذاكَ المتاهْ
كـابنِ آوى.
كنتُ ما تقتلهُ اليابسةُ الجذْلَى، وتحيْيهِ المياهْ
لم يكنْ لي غيرُ منفايَ صدىً يُرْجِعني

صوبَ أعضائي ، وكانتْ تتهاوى
شرُفاتٍ شرُفاتٍ ،
وزُقاقاً فزُقاقاً ، حجراً بعدَ حجرْ.

إيه ، مثلي كَمْ تَغاوى
مَطْلِعاً في غضبٍ ،
أو عُصاراتٍ بها يهذي الثَّمرْ] .

وغواياتي غواياتُ مديحٍ .

مَرَّ بي الشاطئُ ، مرَّتْ موجتانِ ،
مَرَّ بي البحرُ ، ومرَّ الأفُقُ الصَّلدُ على بغلٍ جمُانِ .
مَرَّ بي قَدٌّ فراغٌ ، والورائيُّ الفراغُ ،
مرَّتِ الأرواحُ ، والآلهةُ ، الأعمقُ من أعماقنا .
مَرَّتِ النَّفْسُ التي تُوْهِمنا
أنَّ للرعب فُروجاً كالمكانِ .
مَرَّ درعٌ فتهَيَّأتُ وحيداً كحضورٍ يُغْلِقُ الأعماقَ ، والفَرْجَ السديميَّ على صوتٍ مَنِـيٍّ ،
وتهيأتُ أباريقَ من الآجُرّ دارَ االخزفيُّ البرقُ في البهوِ بها
فالسُّكارى مُدُنٌ أسرى تفِرُّ.
وأنا أُرْجِعُ ما فَرَّ إلى خَنْدقهِ :
خندقِ الرعبِ ، وأمحو فيجاريني المَمَرُّ.

ليس بعدي من يَكيلُ البَعْدَ في ميزانهِ .

كنتُ هذا ،
كنتُ حقلاً ، وشذى زهر نحاسيٍّ ، نحاساً ، وحساسينَ من الزئبقِ . كنتُ

البرهةَ الكبرى لِظلٍّ، وغُداًفاً يخرقُ العُذْرةَ. كنتُ. . .
كيف مزقتُ المواثيقَ، وجئتُ
بمواثيقَ من الصَّعْترَ؟ يا «خلدةَ»، يا أحشاءَ أحشاءٍ، ويا بوقَ غدي
أمهلي عاصمتي، واقتطفيني
كَبداً عن كَبِدِ.
واجمعيني، بعدذا، كي تجمعي الَّلألأةَ الزرقاءَ للحاضرِ، كي تكتملَ الدورةُ في هذا الحديد الحيِّ. يا لَلْحـيِّ، أهرقتُ هباتي تحت ثدييه المسائيْين؛ أهرقتُ المساءا.
فوق ثدييهِ؛ الْتمستُ العَبَقَ الضوئيَّ من غيبٍ لكي يمنحهُ
عَبَقَ الهَرْجِ المُضاءا:
[أيها الهَرْجُ الذي يخلقُ من لحمٍ سحاباً،
وشموساً من لهاثِ الذِّكَر؛
أيها الهَرْجُ الذي يجري على أفلاكهِ
من مكانٍ لمكانٍ حَجَرِ
لا تلامسْ شهوتي بينَ شِبَاكِ الشَّهواتِ.
قلتُ للحاضرِ أغْلِقْني على «خلدةَ» فاستوقفني قربَ النَّباتِ
فجذوري في عَلاَءٍ عَـبَـقٍ
ولأوراقي ائتِلافُ الجُزُرِ]

كنتُ هذا،
كنتُ ما يجمع من ماءٍ نسيج السَّهرِ
ويسوِّي الرَّملَ في قيديَ ماءا.

كنتُ. . . يا لَلْحيِّ، أوثقتُ إلى أعضائهِ
قهقهاتِ الأزلِ. استدْنيتُهُ حتى يراني في غِوى أشيائهِ
وتهتَّكْتُ، فجاءا
لاعقاً تاريخَهُ الأغبر كالخصية؛ كوَّرْتُ على خصيتِهِ

نارَهُ الخُنثى ، وأجريْتُ الخياناتِ مَذِيًّاً في مطاويهِ ، فأرغى خُيَلاءا .
. . . لا تسلِّمْهُ ، إلهي ، لسوايْ
وأنا أُرْجِعُهُ لهواً غبياً ، وهباءا .

قلتَ : «لا تغضبْ» ، إلهي .
قلتَ : «هذا خَلْقِيَ الأصْفى» ، فقعَّرْتُ مدايْ
تحت ما يسقطُ من زيتونهِ
غير أني حين حاصرتُ حصاري ،
وتتبَّعْتُ إلى «خلدةَ» أجراسَ هوايْ
رَجِعَ الحـيُّ إلى ملهاتِهِ ،
والمكانُ الصلدُ أفضى بي إلى ملهاتِهِ ،
فإذا البحرُ سلاحي ويدايْ .

[أطْلِقِ القاذفَ ، أطْلِقْهُ ، وفجِّرْ هذه الأمَّةَ في مضجعها ؛
فَجِّرِ البابَ الذي أوصَدَتِ الأمَّةُ دوني .
أطْلَقِ القاذفَ يا طفلُ على الماءِ الكَمِينْ .
أطْلقِ الأرضَ كَتيسٍ ، وتجمَّعْ في هبائي
غاضباً من أزلِ الله ، ومن شعبٍ تسامى بالفُكاهاتِ ، ومِنيِّ
فأنا آلفتُ ما كانَ أمامي وورائي
بخيوطٍ ، وصدىً رَثَّ على النَّوْلِ المُسِنِّ .

أطْـلـقِ القاذفَ ، يا طفلُ ، وعُدْ بي لِكَميني
حيثُ تَستشرفني الريحُ ، وتُلقي
دِرْهَمَ الحِـيِّ إلى الريحِ وشحَّاذِ السكونِ] .

يا حديداً مُترَفاً كاللَّهو ، يلهو بحديدي
صَدِيء الليلُ من الهولِ ، وما زلتَ شهيّاً كَنَشيدِ .

نيقوسيا ـ شباط ، اذار ، ١٩٨٣

الضَّباب المتَّزن كسيِّد

1

إنها المشيئةُ التي تضربُ الأرضَ بقناعها، وأنتَ رنينُ الضربةِ.
فتموّجْ إذاً. تموّج مُنْزَلقاً من ورقةٍ إلى ورقةٍ، ومن لهاثٍ الى لهاثٍ، وأقْضُم الأبديَّة بأسنانِ الخنشارْ.

لا تَقُلْ إنَّ تلك الصاعقةَ المتدثِّرة بمعطفها الفرائيِّ هي لكَ.
لا تَقُلْ إنَّ العذوبة سوْطُكَ الذي تقودُ به جيادَ النبات،
والنهارَ إوزّةٌ شردتْ من حقلِكَ الحديديّ، بل التمسْ ذاكرةَ التُّفاحِ بكلماتِ الغُصن، وأطْلِقْ يديكَ كذهبٍ مطحونْ.
غزالتُكَ هناك؛ غزالتُكَ البلّلوريَّةُ تحت الشجرة البَّللوريَّة، وقلبُكَ هنا، يهزُّ قرْنيهِ ليرُدَّ الفجر ذا الفراء عن سريرك الذي يهوي عميقاً، الى حيثُ لا نعاسَ يرعى بقراته البيضاءْ.

إنها المشيئةُ التي تضربُ الأرض بقناعها، وأنتَ رنينُ الضربةْ.

2

فلْنَتَفاوَضْ كسيِّدَيْن.
أجلس هنا، أمامي، فأنا جالسٌ ومعي ما تريد،
وحدّق فيَّ كما ينبغي لخصمٍ أن يحُدِّقَ، ثم ضَعْ على المنضدةِ ما تحتوي جيوبُكَ:
الحديقة أوَّلاً. إنني أرى الجذورَ تخترقُ السُّترْةَ، والترابَ يُعَفِّرُ قميصَكَ. هنا، على المنضدة.. الحديقة أوَّلاً.

ثُمَّ هاتِ السحابةَ تِلكَ، التي تبلِّلُ حوافَّ القبعةِ، وتتدلىَّ خِصَلٌ باردةٌ منها بين خصلات شعرِكَ. وهاتِ القوسَ قُزَحٍ، ذاكَ، المائلَ على صدّارَتك المذهَّبَةِ. هاتِهِ.. هنا، على المنضدةْ.

لا، لا تكنْ شاحباً، ولنتفاوَضْ كسيِّدَيْنِ، فمعي ما تريد.

اجلس أمامي، وضعْ على المنضدة ذلك البهاءَ الذي أتْعَبَ مديحي؛ والمسافةَ أيضاً، مسافة الغضبِ المؤطَّرَةَ كصورةِ جَدٍّ.. هاتِها، وهاتِ المساءَ المتدليَّ على صدركَ كربطةِ عُنُقٍ.
وافتحْ ازرارَ سترتكَ لأرى ما تبقّى. نعم نعم: نجمةٌ مختبئةٌ، وبقايا معركةٍ؛ مسرحٌ وبلابِلُ نائمةٌ فوقَ سيفٍ.. ضعها كلَّها هنا، كلَّها، وكذلك الحريقَ الذي لم يبدأ بَعْدُ.

لا تَكُنْ شاحباً، فمعي ما تريد.

3

مُثْخَناً بالحدائقِ، مائلاً كقوسٍ يمتدُّ من الذهب الى المديحِ :
هكذا يتمدَّدُ ظلُّكَ على أشيائي؛
وبعونِ صوتكَ، وسَمَعِكَ، يأخذُ الوقتُ طريقَهُ الى الكلامِ الأخيرْ.

أُصارحُكَ بالسُّنونوة الميِّتَةِ على سلكِ الشارع،
وأُصارحُكَ بالجبلِ ذاكَ، الذي يُرى من شُبَّاكي رافعاً مِطْرَقَةَ ضبابهِ فوق حُطامِ الشَّفَقِ.
أصارحُكَ بأنين الباب.. أنا الجالسُ هنا، أمامَ صَحْنِ الرَّجُلِ الذي قُتِلَ في البابِ فَلَمْ يَلْمَسْ وجْبَتَهُ.

أميري، يا عافيةَ الظلامِ، تسلَّلْ من الفضيحةِ إلـيّ.

4

«الضبابُ المتَّزنُ كَسَيِّدٍ يطأُ العتبةَ النباتيَّةَ»: ذلكَ ما تقولُهُ الخادمُ لسيِّدتها. لكنـك، أنتَ الواقفُ بزهُّو من كسرَ أُصُصَ الوردِ، وبعثرَ اللَّبلابَ؛ أنتَ الواقفُ طويلاً أمامَ الحديقةِ بِمَقصَّاتِكَ ومِعْزَقِكَ، وعلى يديكَ أثرٌ من سَمادٍ طريٍّ، لا تَرَى ذلكَ.

تطأُ العتبةَ ذاتها، حيث يطأُ الضبابُ، ناظراً أبعدَ مما تنظرُ الخادِمُ، وترجعُ صارخاً: «آسكتي. إنَّهُ ينذرُ النَّباتَ، ويَقْتَحمُ ببهلواناتِهِ المضحكين».

أحذيةٌ من ضبابٍ،
وعُكَّازاتٌ من ضَبابٍ،
وأجدادٌ نَسُوا المدخلَ إلى حديقةِ بيتكَ:
ذلكَ ما لَنْ تقولَهُ أنتَ؛
ذلك ما لَنْ تقولَهُ الخادِمُ لسيِّدَتِها.

5

الطُّيوفُ التي من سُمْسُمٍ ترفعُ الفجرَ كالسِّتارةْ،
وأنا، أيهُّا الشَّهيُّ المُرْتبِكُ كجناحِ الزِّيْزِ، أشقُّ طريقي إليك بشبكةِ المصارع وحَرْبَتِه.
لهُاثي كَرَفْسٌ، وعَرَقي صواعقُ من فراءٍ ناعمْ.

قد تُفْلِتُ مِنيِّ أيها الشهيُّ المُرْتَبِكُ هنا، وقد تُفْلِتُ هناكَ، لكنني الحيرةُ التي تُدْرِكُ اليقينَ، والظلُّ السـلطانُ الذي ينحسرُ وينتشرُ، حتى لكأنَّ قبضتي، وحْدَها، هي الأكيدُ الذي يتحصَّنُ به الشَّكُّ المُتْعَبُ، والغامضُ الهاربُ من قَدَرِهِ المُفْتَضَحْ.

أينَ تمضي سليلي؟ أينَ تمضي يا شهيّاً شُغِلَتْ به الأنوالُ، وحاكَهُ الظَّلام؟
كلُّ شيءٍ مُطَوَّقٌ بي، فالينابيعُ جُعْبَةُ سهامي، والنهّارُ كَلْبي.

6

بسيوفِ الجليدِ، ومنجنيقاتهِ، تفتحُ الأرضُ طريقها إليّ.
بزيزانها العدميَّةِ، وشعوبها التي أتشمَّمُها كَطَهْوٍ مُرٍّ؛ بسعاةٍ يحملون أحشاءهم كالبريدِ، تفتحُ الأرضُ طريقها إلـيّ.
وأنا، كَجَسُوْرٍ، عاكفٌ على لهويَ لأبذِّرَ إرْثَ الغريبِ وأقدارَهُ.

7

مِنْ سيصلُ، أيتها الأرضُ، من سيصلْ؟
ذبـائـحُ من رخـامٍ. مغيبٌ صقيلٌ، ولهـوٌ مخضَّبٌ بأنينٍ. صقّالاتٌ تحمل المدينة، وفجرٌ كالسُّـتْرةِ. غداً، غـداً. دعْ كلابَكَ أمام الباب، دَعِ المغيبَ وانزلْ عن المرساةِ، فالأعماقُ أعماقُك. غداً، غداً. كصاعدٍ، لا، كحكمةٍ تحت ورقةِ اللَّبلاب، يلمحُكَ الغبارُ العابثُ. وآلاتُكَ؟ لا. شِفَافَةٌ ترفعُ الآلةَ الصَّقيلةَ. مياهٌ تلتفتُ، والصاريةُ بين يديكَ. مَنْ سيصلُ، من سيصلُ؟. غنيمـةُ النَّـدى الأسيرةُ وعويلُها، غنيمةُ النباتِ أنتَ. أأصرخُ: أفِقْ؟ لا. صباحُكَ البوّاقُ يطلقُ النَّفيرَ، والجبلُ يعدو.
من سيصلُ، أيتها الأرضُ، من سيصلْ؟
صدىً كآتٍ سكرانَ. صدىً كدميةٍ في الواجهةَ ينادي العابرَ، والروحُ تحرقُ أزياءَهـا. أتبعني يا بيتُ لِنُلْقيَ نظرةً من شُبّـاككَ على المزهريَّة، ويا زجاجَ النافذةِ تَقَنَّعْ بي كقهقهةٍ تمشِّطُ شَعْرَها. لا. عابثٌ مثليَ مَرَّ بالشَّفق. عابثٌ مثليَ مَرَّ فأطلقتِ الملهاةُ إوزَّها. عميقٌ هذا. عميقٌ هذا. صرخةٌ ترتطمُ كالزِّيزِ بشجرةِ الأغاني، والمكيدةُ تستسلمُ لمرآتِها.

مِنْ سيصل؟
من سيصلِ
أيتها الأرضُ؟
شبحي يضيءُ سراجَ الأشباحِ ،
والقيامةُ تنثر التوتَ على الكفنِ الذَّهبيّ .

8

للبحيرةِ، خلفَ الباب، طَرَقاتها،
وللعراء، خلفَ درعيَ الأملسِ كرداء الأمير، طَرَقاتُهُ،
وخلف المياهِ طَبَّالونَ، وعرائسُ من صرخاتِ الحمقى .

أماه، ضعي سلالك هنا،
ضعي المكان كَخُفَّينْ أمام الفراغِ لضيفكِ السَّكران،
ويا أبي أجعلْ سـهرَكَ مديداً، وتوسَّدْ ـ كما مِنْ قبلُ ـ آبارَك العميقةَ، حيثُ الفضاءُ دَلْوٌ، والغبارُ حَبْلُكَ السُّكَّريّ .

طَرَقاتٌ على كلِّ بابٍ .
طَرَقاتٌ على الحطامِ الأكبرِ، والسيلُ يزخرفُ الدروع .

نيقوسيا ١٩٨٣

منزل يعبث بالممرات

السور:

هكذا، قُرْبَ حجارَتِهِ، قُرْبَهُ، قُرْبَ النباتِ المندلق من قِرْبة الحجر. هكذا، بسطوع ما يتراكضُ بهذيانـهِ المُجَلْجِـلِ فوق الحافة الشمالية، وبصوتٍ في الشجرِ المنبثق أعلى من الحافةِ الشمالية، حيث تتقاربُ ضفافُ وتنفصلُ متكئةً على مجاذيف العـظام وصرخـةِ الثمـر المتساقطِ مثل أجاصاتي الى المجزرة؛ هكذا، نَعَم، لا بِرَسْمٍ يدوِّنُهُ الفجرُ على الباب، لا بخريفٍ خافتٍ كَوَسْوَسَةِ إناءٍ يختطفهُ الشاربُ، أو بحبورٍ يعضُّ على سهمهِ المرجانيِّ، بل بنقرٍ شفيفٍ على البوصلةِ الشفيفة يرفعُ المشهدُ قيودَهُ الى اليدِ التي تهزُّ مفاتيحَها في الظلامْ.

حجـارةُ البـاب، بابٌ في حجـرٍ شهيٍّ كإغماضةٍ. وأنا أرفعُ التَّرْقوةَ الصَّلبةَ للظلامِ إلى غماماتهِ الصَّلبة.

. . وسورٌ، نعم.
محضُ درجٍ وطيءٍ، وحجرٌ مهرولٌ.
بابٌ، وبابٌ في البابِ وغدٌ في قفلهِ. ورخاءٌ تقنَّعتْ مخطيّاتُهُ باللّبلابِ:
شُبْهةٌ تُعبر ككمثرى، وصريرُ البوابةِ يرمي مخدَّته الى الشفيفِ العالي.

الحديقة:

بآلاتِ الزهـرِ الرَّهيفةِ، وسلالمِ الشجرات، يُبْدعُ الصَّخبُ نقشَهُ الأكملَ على خَزَفِ نشيديَ. والـورقةُ تهمسُ الورقةَ؛ العشبُ يشتغِلُ على لهبهِ ومجونه؛ السماءُ التي تحاكي الـظلَّ، من فوق، تَزِنُ بِفَـادِنِها الغيبَ المـائلَ كحائطٍ؛ وحروبٌ في نسغِ كُـلِّ شيء.

غفوةٌ كنهارٍ مقدوفٍ من شرفة الجيلِ تستبدُّ بي.
غفوةٌ تصلني بالأرض وتحجبُ جهاتها. . والحديقةُ لي:
بضربـةٍ؛ بستـةِ أيدٍ تُخْني عـليّ بالضَربـة تتشظّى الحديقةُ معي، أو تنفلتُ كنسجابٍ، وأنا أمدُّ يديَّ بالبندق واللّوز: صديقتي، يا شرارةَ الحدائق كلِّها؛ يا حديقةَ المساءِ المطحونِ الذي ينتثرُ علَى خوذتي، بالغي قليلاً في مديحك لي، وارفعي المكـانَ الى بركـانِـه، والـذُّبـاباتِ البيضاءَ الى الروحِ، فما مِنْ ماءٍ سيخبرني بالذي يخُبرُهُ الماءُ؛ ما مِنْ رسولٍ سيُمْلي عليَّ رسالةَ البرعمِ الأسير وعرباتهِ الناجية.

خياميَ كلُّهـا، أيتهـا الحديقةُ، خياميَ كلُّها؛ نبعي المتَّكىء على عصاي، وجَبَلي الـذائبُ كفضَّـةٍ يصكُّ الغمامُ عليها صورةَ الغابة؛ هالتي، ووتري المقطوعُ الذي يسقط منهُ سهمي الى مَقْتَلي؛ رسولي، وثوري الذي يطحنُ الشجرةَ بعظامه الخضراء؛ مكاني، ومصابيحي، ومائدتي التي ترفع الصِّحافَ الى ضلالـة البهاءِ...كلُّها تتكىء على البابِ، وروحي تقرأ الورقة المستظِلَّةَ بأنين الشجرات.

بآلات الزَّهر، بك أيتها الحديقةُ الضائعةُ في جهات يدي، سأمسكُ الرَّسنَ الأقوى، ناظَراً الى ما ينحدرُ من الصرَّخةِ العاليةِ، فلي موعدُ الجذورِ، واحتدامُ البعيد. وإنْ نسيتُ شيئاً من مباهجِ الوداعِ وهسهسات مهاميزه، فسيدركني الـظلُّ الرسولُ، أو النبضُ الرطبُ لثمرةٍ سَقطتْ في المياهِ؛ إنْ نسيتُ؛ إنْ نسيَ الوداعُ شيئاً من مجوني الذي قَسَّمَ الشجرةَ بين جهاتها.

هكذا كُـلُّ سيُدْركُ الذي لم يفتْهُ. كلُّ سيُدْرِكُ المُدْرَكَ، وينسى بطشَ الذي فات.

بآلاتِ الزهرِ تتواطأُ الأرضُ على نفسها.

الدرج :

خبـزٌ مرميٌّ كَشرَكٍ، وبهاءٌ مدوَّرٌ كحدوة البغل، يقضمان الخطى، والمغني يشدُّ العتبةَ الى صدرهِ كطنبورٍ، هامساً: تفضَّلْ.

درجٌ ككلِّ درجٍ: ظلٌّ مذعورٌ، وفُطْرٌ أخضرُ، وقواقعُ انكبَّتْ بمجسَّاتها على الحجر تستقرىءُ النسيانَ المتهوِّرَ كرُعاته الصامتين. هكذا، ككلِّ ما تعرفه وما لا تعرفه، ككلِّ درجٍ هذا الدرجُ، فلا تتأمَّلَنْ شبحَكَ الذي يرتقيه ممسكاً بِرُدْنِكَ كطفلٍ رمى جهلَهُ إليكَ فأيقظكَ من حكمةٍ نهبتكَ نهباً؛ ولا تتأمَّلِ الحجرَ الصقيلَ المتَّفق على ثقله بك، بل تقدَّمْ ناظراً الى العتبة وحدها؛ ناظراً الى عظامِ العاصفةِ المملَّحة، والهديرِ المُمْتَدَحِ لشعبٍ مُمْتَدَحٍ.

بعد هذا فليمتدِحْكَ الدرجُ المُفضي إلى ظلِّكَ الشريد.

العتبة :

إنتبهْ، قربكَ حُقٌّ تخبِّىءُ الظلالُ فيه يواقيتها. انتبه، انتبه.
فاكهـةٌ تتزيَّنُ لنداءِ الفاكهة قربَ خطاك، قُرْبَكَ، قُرْبَ الرفيف المُتَعْتَعِ بما شرب الحنينُ من يديكَ. انتبه.
أسـيرٌ يدحـرجُ الدَّنَّ أمام العتبة، وأنتَ القريبُ من دورتكَ الذهبيةِ ترسلُ خطاك وتبقى حيث ترى الـرُّسُـلَ ينفخون في القصبة التي ينفخُ فيها النهر أجسادَهم، ويدورُ الحفيفُ ذو الأيدي العشر عليهم بِحُسْنِهِ الـمُحيِّـرِ كمنارٍ نائم.

إنتبه.
إنتبه.
العتبةُ تُدَهْدِهُ الحاضرَ، وخطاكَ تجْـفِلُ الغزالات.

الردهة:

الريشةُ التي عبرتِ الردهةَ في الهبوب الخفيف لي، ستتمايلُ في الهواء قليلاً، ثم تستقرُّ على المروحةِ الرخاميةِ؛ وقربها، قربَ ظلِّها المُتماوجِ من خَفْقةٍ تحرِّرُ الرخامَ كلَّه، سأقفُ خالعاً معطفي بعد تلك النُّزهةِ في القُبَل.

الحُجرات المقفلة:

بابٌ هنا، وبابٌ هناك.
بضعُ درجاتٍ تنحدرُ إلى أسفلَ، حيثُ البساطُ المطرَّزُ بالخطى العَجُولةِ وبالثرثرات.
بساطُ مديـ يـ يدٌ وراءَ بساطٍ مديـ يـ يـ دٍ، وهمسٌ يتقَّرى بيديه السيوفَ المرميةَ في أهمالٍ إلى الزوايا.
غدٌ كقرعٍ على صنجٍ، وحاضرٌ يكسرُ المفاتيحَ في أقفالها.

يا مُضيفي،
يا مُضيفي، لا تتقدَّم بي كثيراً الى السحابةِ الجالسةِ أمام نَوْلها.

خروج على عَجَل:

الريشةُ التي عبرتِ الرّدهةَ، في هبوبي، رجعتْ، ثانيةً، في هبوبي.

وصفُ أخيرُ يُلْزِمُ كلَّ وصفٍ بعد الزيارةِ التي...

سأتلو ما تَلَت الورقةُ المتناثرةُ على الممراتِ. سأتلو الممرات وأدراجَها. سأتلو تلاوةَ الظلِّ وساكنيه الذين يشرفون على لهاثي بصباحاتهم المعلّقةِ من أثدائها. سأتلو النُّمورَ قفزةً قفزةً. سأتلو المراوحَ التي يميسُ فراءُ النُّمور تحت حركتها

الصلبةِ كزفير اليائس ، فتقدَّمْنَ بأقلامِكُنَّ ايتها المحظيَّاتُ، تقدَّمْنَ كظرافةٍ تتبرَّجُ للضباب الظريفِ، ودَوِّنَّ ما ترينَ منيِّ: شهقتي، ونوافيري المتهتِّكة. دوِّنَّ الممرَّ ذاكَ؛ الممرَّ الصاعدَ بتاجهِ الرَّخو إلى الرابيةِ حيث سأرمي، في منتهاهُ، غدي إلى البِركةِ الملكيةِ، وأمضي رقيقاً إلى فجيعةِ الملوك.

. . . وسأتلو الرملَ المتهيىء لي هناك: سأتلو العابرَ والمُقيم. سأتلو الأعمدةَ كلمةً كلمةً تحت إطلالةِ التماثيل المُتَفكِّهة من قمم الأعمدة، فتقدَّمنَ أيتها المحظياتُ بأقلامكنَّ كي لا يفوتني ما يُحاكُ وما لا يحاكُ. تقدَّمن واثقاتٍ قبل أن تزلزلَ الظلالُ الظلالَ، ويُفْلِتَ المرئيُّ من شِباكِ أشكالهِ، ثم دَوِّنَّ ما ترين من الممرِّ الذي ينتهي إليَّ متباطئا في أغلالِه البيضاء؛ دوِّنَّ حركتي وقناعي، دَوِّنَّ الذهولَ الممسكَ بقُذَالِ كَلْبِه أمامَ المداخل.

(تشهد التماثيلُ كلُّها،

تشهدُ الأعمدةُ، والبركةُ الفارغةُ قربَ الأعمدةِ، أنني

تنزهتُ قليلاً هناكِ).

. . . وسأتلو الغوايةَ، أيضاً، بصوتي الذي لا صدى لهُ، متّكئاً على سور الجسر فوق الرابية، هناكَ، حيثُ تميلُ الطُّرُقُ بعيداً عن يديكَ القويتين - يديِّ المدينةِ المتدثِّرة بالأبراج وبظنونها، فتقدَّمن يا خليلات الظهيرةِ الباردة لتسندنني في عبوري الى الفناء المنتظر بعربته هبوطَ التماثيلِ عن أعمدتها بعد انتهاءِ العُرْسِ؛ تقدَّمنَ حافياتٍ على الندى المتجلِّد، واجْمَعْنَ بالأناملِ أذيالَ أثوابكنَّ حتى لا يُشَتِّتَ الحَشِيُشُ رَهْبَةَ الدمِ الذي يبني الهياكلَ حولَ سريري.

كنتُ هناك.

كنتُ أتلو البسيطَ من كتابي عبر الردهةِ الأخيرةِ، ملتفتاً حيناً بعد آخرَ الى القوسِ الحجريِّ.

كنتُ هناك.
كان أطفالُ صديقي هناك ايضاً.
كان صديقي هنـاك، وكانتْ زوجهُ، وكان الجليدُ الخجولُ متناثراً كنظراتِ الصَّقرِ في الفناء الذي تأسرهُ التماثيلُ برفَاهِ الحجر.

(هكذا، إذاً، روَّضَ المشهدُ جسارتي،
وروَّضَتِ الرابيةُ السفحَ المتكوِّم كجريحٍ).

إيه يتها الأدراجُ الواهنةُ التي لن أطأَها. إيه أيها المكانُ الذي يتسلَّقُ الظهيرة كغبـارٍ مفجـوعٍ. إيه نَفْسي نَفْسي نفْسي، بعصيانٍ واحدٍ، وضربةٍ واحدةٍ، ستأسرُ الهرطقةُ هذه الممراتِ، وسأبقى حيث يبقى الحاضرُ الخجولُ، هنا، تحت القوسِ المشتعلِ بفكاهةٍ مرصَّعَةٍ، جاذباً وتري لأرميَ سهمَ الفضيحة، فإنْ أصبتُ تَرامى المكَـانُ وديعـاً يسبطُ المواريث كطُنْفُسٍ، وإنْ نبا الرَّميُ عدتُ إليَّ بعصيانِ الشجـرِ كلِّه، والظلالِ كلِّها، ناظراً، ثانيةً، إلى الأفقِ الذي يجمعُ السهامَ لسطوتي النَّبيلة.

كنبيلٍ، إذاً، ينبغي أن أروِّضَ المشهدَ الذي روَّضَ الجسارة.
كنبيلٍ سأدلقُ صِحافَ الفاكهة من الأعلى، هاتفاً بخليلاتي: دَوِّنَّ هذا؛ دَوِّنَّ ذهبي المُذَرُرَ على قرونِ الجليدِ، وارفعنَ خمَالاتِ الـريشِ لأتَّقي وهــجَ الأجنحةِ، فأنا شبكةُ المديحِ التي يتخبَّطُ فيها عُقَابُ المديح.

نذوري، هذه، إلهي.
نذوري، وهباتي، شكيمتي وطبعي المتدحرجُ كتينٍ الى هاوية الفاكهة.
بَيْدَ أني أشمُّ الفخاخَ بين جسور المدينة وزَرَدِ البحيراتِ، إلهي؛ وأتقرَّى بيديَّ عناقيدَ اللهب الراكضِ من قوس إلى قوسٍ، كأنَّ بي تواطُؤَ الحجرِ على خلودِ الهباء، وشرُوْدَ الجُسُورِ عن نفير الجُسور.

بنفيرٍ واحدٍ، أو بشرُودٍ واحدٍ، إذاً، سأطوِّقُ الشتاءَ المتمدِّدَ على الرابيةِ، هناكَ، حيث الأعمدةُ التي يدورُ من حولها أطفالُ صديقي بمعاطفهم السميكةِ؛ سأطوِّقُ المغيبَ المُتَقَلِّدَ صولجانات ضبابهِ ومراثيهِ، وسألجىء الهارب من نعيم الحجر؛ سألجىء الحجرَ هَيْأَةً وسديماً، قارعاً بالأنامل قرعاً خفيفاً على زجاجِ المساءِ المُعَسْكِرِ ببهلواناته وراء البركةِ الفارغةِ. لا، سأدفعُ البركةَ يميناً، والأعمدة شمالاً، فاتحاً لهواي ممَرَّهُ العدميّ:
دَوِّنْ هذا، دَوِّنْ هذا يتها الخليلات:
عاصفاً يبدأُ الشَّكلُ، عاصفاً ينتهي.
عاصفاً يبدأُ المكانُ، عاصفاً ينتهي.
وأنا أُحَرِّضُ التماثيلَ، على قممِ الأعمدةِ، أن تطلقَ قُمْرِيَّها الجريحَ من شِبَاكِ الحجر.

غير أني سأتلو الحجرَ جناحاً جناحاً، وسأتلو البحيرةَ خلف الرابيةِ طعنةً طعنةً، موشكاً ـ وأُمسكُ نَفْسي ـ أن أُضرِّجَ الغدَ كله بهبوبٍ يشوبهُ الزَّعفرانُ.
موشكاً أنْ أقتحم الهياكلَ بالهياكلِ، والأدراجَ بالأدراج، وحسبيَ الغوايةُ التي تُدحرجُ قُفَفَ العُنَّاب بركْلَةٍ من قَدَمِها.
دَوِّنْ هذا،
دَوِّنْ هذا يتها الخليلاتُ، وأَحِطْنَ بي ليكونِ للخطواتِ ثِقَلُها الأكثرُ جهامةً في العصيانِ العظيم.

هكذا،
خفيـ
ـيـ،
يفاً
سأمضي إلى فجيعةِ الملوكِ،
هٰكذا سأنثرُ بهاري على كلِّ مائدةٍ، وأرفعُ الأرضَ بكلَّابات النحاسِ إلى هَيْأَتي. وسأتلو، بعد هذا، النوافيرَ الصامتةَ في فناء القصر على الرابيةِ، سأتلو

الشّعـاعـاتِ الخفيَّةَ التي تدفع عُجُولهَا الى النشيد، كأني الظلالُ تشقُّ عن دورِعها الظلالَ، عجلى، تتدانى، أو تتدانى نَفْسي ممرًّا ممرًّا، وزينةً زينةً.
سأتلو نفْسي أمامَ الحفيفِ المُفْتَضَح للحجرِ، إلهي؛ فليأْذَن الجليدُ لي بأنينٍ تتأرجحُ أشداؤهُ بين التماثيلِ وبين المياه.
ولْيأْذن المغيبُ لي بسهمٍ أفَوِّقُهُ ولا أرميهِ، ليأْذَنْ لي بذهولٍ من المشارفِ هذه، ساهرٍ كبجعةٍ تضربُ الفراغَ بمنقارِها الذهبيّ.

(لم يكن عليَّ أن أستسلمَ هكذا في بوتسدام.

لم يكن علي أن أخلع معطفي في تلك الحانة، بل ان اقف في بابها الذي يعلِّقُ الضبابُ عليه مفاتيحهُ وحدواته المتلألئة، متستِّراً، كغريبٍ، بهذيان الفرات.

لم يكن عليَّ أن أستسلم، هكذا، يا صديقي، لجمالٍ يُزيْدُ كلَّ بُرْهَةٍ في رِهَانِه. لم يكن عليَّ أن احتمل البلاغة الأكثر انشغالاً بما لا يُقال.

في بوتسدام، في حانة يعرفها صديقي، خلعتُ معاطفي المائة التي من كُرَّاثٍ، وتوتٍ، وحرشوفٍ، وباقلاَّءٍ ولُفَّاحٍ، وعدس، وكرفسٍ؛ خلعتُ الشمالَ المُؤتَمَنَ على كنوز الحمى، داخلاً بفخاخي المسكورة عليَّ؛ داخلاً على الحاضر بكؤوسه الفارغة.

أيُّ بطشٍ هذا، صديقي؟
أيُّ بطشٍ لا يعلِّق معطفَهُ، مثلي، على مِشْجَبٍ في بوتسدام؟)

خفيفاً
خفيفاً سأهبط الدرجَ كما جئتُ،
وستهبطُ الأعمدةُ، من ورائي، ما سحةً بفرْجُونها مجرَّةَ النبات.
خفيفاً سيرفع المغيبُ محبرَتَهُ إليَّ، والرياحُ أَقلامَها،
وبلهفةِ الخفيِّ إلى نزهةٍ، باحتدامٍ، بكَيْدِ الوقتِ للوقت والدُّعابةِ للدّعابة،
ستهرعُ السهولُ المعتمةُ، هنا، إلى أنوالها، والجليدُ إلى نقوشهِ التي لم تكتملْ،
كأنني سأتأبَّطُ القماشَ والخزفَ، معاً، في عبوري من خيالاتِ الضبابِ إلى

أزقّةِ بوتسدام .

(خيالاتٌ كلُّها، صديقي .

خيالاتٌ كالدّراقِ بين يديْن نقشتا المغيبَ على درعي .

خيالاتٌ كأطفالِكَ وهم يدلقون على المائدة حلوى ذائبةً . حلوى خيالاتٍ، سُمُنٌ، طيشُ حجرٍ يضربُ بجناحيهِ جدارَ الحانةِ كغرنوقٍ مذعورٍ. والضبابُ يجزُّ، خلفَ النافذة، بمقصّاته الكبيرة فراءَ الملهاة .

أيُّ بطشٍ هذا، صديقي؟

أيُّ نشيدٍ ينتهبُ النساء، ويسوقُ أمامه الحانة ورصيفَ الحانة؟) .

والمغيب ايضاً سيهبطُ الدرجَ، مثلي، الى حيث تمضي المدينةُ بزُحافاتها صوبَ أبواقِ الحبر. وأذْ سأسندُ كتفي، ثانيةً، الى عمودٍ، في انتظارِ إشارةِ المَرور من رصيفٍ إلى آخر، لن أعبأ بالهتافِ الثَّمِلِ الذي يطلقهُ مصيري من جهةٍ أخذتْ كلَّ شيءٍ، وأبقتْ عليَّ، هنا، هابطاً درجَ قلبي ونهْبُهُ؛ هابطاً درجَ كلِّ شيءٍ، كأني سأعيدُ الى الملوكِ خواتمَهم، وإلى السِّحْرِ نُمورَهُ الهاربة .

وأنتنَّ، يتها الخيلات اللواتي تتأفّفْن من شرودي، ابقينَ حيث أنتنَّ، تحت الظلِّ الذكوريِّ وعرائشهِ المتّكئةِ على تماثيل الساحةِ، هناكَ، وسطَ المدينةِ، وسطَ اللَّوعةِ التي تكتُمها الجُسورُ المتمسِّحةُ كالقطط بثدييٍّ المصارع الأعمى . ولا تقُلْنَ وداعاً إذْ أنتهي إلى الضفةِ الأخرى من جداولِ الرّخامِ هذه، لا . انظرْنَ مَليّاً في الذي دوَّنْتنَّ على اللهاث العالي، وتراجعنَ قليلاً قليلاً، بمراوحكنَّ، بالقلاداتِ التي نَسيَ المغيبُ على جُمانِها عويلَهُ المترَجْرِجَ كالنّدى .

فلألمحْ ظلالَكنَّ، وحدَها، في مكيدتي،

فلألمحِ الدُّعابةَ التي تُدَحْرِجْنَها إلى هواي .

كم عليَّ أن أبقى هنا بعدَ كلِّ ذاك؟

كم عليَّ ان اشدَّ المدينةَ كسهمٍ إلى وتر الملهاة؟

كم عليَّ ان أرمي الرِّمْيَةَ ذاتها، بالهياج ِ ذاتهِ، لتتفجَّرَ المحبرةُ في لهاثيَ هذَا؟

تقدَّمْ.
تقدَّمْ وحيداً بجمال ِ شرُودِكَ أيهّا الغريب.

نيقوسيا ١٩٨٤

قلق في الذَّهب

إبتدعْ أيها اليأسُ في مهبِّكَ يأسي
وليكُنْ قِرانٌ يُعجِّلُ الخواتيمَ، والعرسُ نفسي
وليكنْ سَهَرُ الغبارِ من عَلِيِّينْ يرمي عليَّ الحِليّ حتى أبدِّدَ بعضي
في امتداحِ الغبارِ؛ أو أستـدقَّ كالسهمِ حتّى
تمهِّد الريحُ بي غدرَها وهي ترمي منازلَ الماءِ شتّى.
ومن ختامٍ،
من غدٍ أو رنينٍ،
من مجاهلَ تعلو كهندباءٍ، ومن لهاثٍ كأرضٍ
يجرِّدُ القلبُ سيفَهُ الرمادَ: هاكم شهوديَ ما بين إبرامِ شكْلٍ ونَقْضٍ
يدجِّجونَ البعيد بي أو ببعضي
لكأني فَرغْتُ من عبثٍ يُرسلُ الخرابُ في جَرْسِهِ البهيِّ بجَرْسٍ
وكأنْ قِرانٌ يعجِّلُ الخواتيمَ، والعرسُ نَفْسي.
وأنا.. إيه يا المُرْتجَى من ظلامٍ نديمٍ، ومن دويٍّ نديمٍ
مُشْكِلٍ يغمسُ المكانُ فيه رغيفَهُ، ولومْضي
نمورُهُ؛ فاصعدي من يقينِ الهباءِ، أو من كثيفهِ المهدومِ
إصعدي يا طرائدَ اليأسِ حتى جحيمي
فالغدُ المقامرُ سَكْرانُ، والوقتُ مَوْلى
يتعثَّرُ من خجلٍ بثياب النّدامى، وينحني فَيُوَلّـى
ولهذا أضيقُ مثلما يضيقُ الغبارُ بالريحِ، أو أتقصّى الجسومَ في هَرْجِها بالجسومِ،
عاكفاً عليَّ من ورقِ السروِ، والتينِ، والبتولا،
مُطْبِقاً ظِليَّ اللّبْونَ على البرقِ: يا صاحِ، يا برقُ خفِّفْ رفيفكَ، فالغيمُ يقظانُ في سريرِ العناقيدِ، والأمسُ يركضُ في درعِهِ النّباتِ، سيّانَ أن يسرقَ النبيذُ من يديهِ الكؤوسَ، أو ينْقضَ الهواءُ مواثيقهُ الأخيرة. يا برقُ، يا مِغْزَلاً دار بين

يديْن لا ترفعانِ إلّا العويلَ، رقِّقْ رغيفَكَ، رَقِّقْ هوى نسائِكَ يرفعْنَ طَرْفاً مَلُوْلاَ
إلى الهباءِ إذْ يَـحْلَوْلى،
وتهتّكْ، فالسماواتُ شُبْهَةٌ، والنفوسُ في زَرَدٍ من هَزِيْمِ.

إصعدي يا طرائدَ اليأسِ حتى جحيمي.

وأنتَ؛ أيُّ حديدٍ يموجُ تحتَ يديكَ؛ أيَّ جَمْشتٍ
يطحنُ النهارُ في ظلِّكَ المُجَرَّحِ؟ أيُّ ابتهالٍ يفجِّرُ العُنَّابَ؟ أيُّ سديمِ
يرميْك كالندى بمرايا يسرقُ الفجرُ منها إوزّهُ؟ أنتَ؛ ما لَكَ تدنو
بحبرٍ من الصّدى والرُّجُوْمِ ؟
كنتَ ذا المُغَيَّبَ، حلواً، وقد
تَتَقَرّىٰ الظنونُ لهوَكَ مُرْخَىً على وقارِ الظنونِ.
كنتَ ذا، أو ذاكا
تغسلُ المعاني قواريرَها عن هوىً فيكَ حتى يخوضَ فيها هواكا
بدروعٍ من الشقائقِ. مَرْخى مُتَهْتَهاً في دَلالٍ مُتَهْتَهٍ. بَعْدُ لم يَشِ جذرٌ
بما رفعـتَ صوبَ الغصونِ
من مكائدِ الريحِ إذ هي تُرخي على انتحارِ الغصونِ
ستارَها المرمريّ. لا، أنتَ مالَكَ؟ روِّعْ مجلسَ الليلِ، رَوِّعْ مَدَاكَ، واكسرْ
على الندى سيفَ قلبكَ. بلْ مُرَّ مُتْرَفاً برمادٍ يقنصُ الفَجرُ فيه المرايا، وأَمْعِنْ
مع المجاهلِ دكّا
في المجاهلِ حتى يغلبَ الرعبُ من رعبهِ الحياةَ، أو استردَّكَ سَفْكَا
حين يرفعُ البطشُ مثلي محاريثَهُ إليكَ. لا، أنتَ مالَكَ؟ هذا خلافُ عليكَ حلوٌ، وهذا
وَجَعٌ يَغْرفُ الحدائقَ. هذا هبوبُ، وهذي مكيدةٌ من متاهٍ كنُعمى، وإني فُتونٌ

نسجَ الموتُ غزلانيَ الصغيرةَ فيهِ ، وروّى عبثُ كلَّ ناريَ ، فالأرضُ ليسَ تبينُ .

سُكّرٌ يطعمُ المجاهلَ قلبي ، وسُكّرٌ يطويني
على فخاخٍ من الزبيب، وفتْكُ يصوغهُ التكوينُ
آن أُرمي بها يجعلُ الأفقَ سيّافَ نُعمى ، وآن أُرمى بهاجنٍ مسنونِ
من بهاءٍ يشقّقُ القلبَ. يا قلبُ أوقفْ إوزّكَ يخبطْنَ صدري ، ورُدّني كالرنينِ
يموجُ في كلّ بهوٍ. تعالَ،
يا عشبُ؛
هيا تعال،
وأوثِقْ نمورَكَ؛ أوثِقْ رُماةَ يخضورِكَ الجياعَ؛ أوثِقْ كأمسي
غديَ المجفَّلَ، فالوقتُ نفسي:
قِرانٌ يُعجِّل الخواتيمَ، أو عضلٌ من جمادٍ أميرِ
يحزمُ الأرضَ. أمسُّ من الجمادِ الأمير
يحزمُ الهواءَ. أوقفْ إوزّكَ يا قلبُ يخبطْنَ صدري ، وبعثرْ على المديحِ ذُرُوْري .
ثُمَّ ، أنتَ ، يا شريكُ ، هذا خلافُ عليكَ حلوٌ، وهذا
مداكَ نهْبٌ لكـلِّ طيـشٍ ، وإني فتونُ
ذَهَبَ الهدرُ بي، فالمكانُ نهْبٌ كمينُ.

أهكذا، أيها المعافى كطينٍ، تدورُ بالأرضِ حولي؟ أهكذا تتناهى
فكاهةُ الروحِ ؟ قُلْ للمياهِ مرحى ، ولُـمَّ ما قَدْ تاها
من شموسِ المياهِ إذ تتدلّـى عليكَ في رَغَدٍ مُسْتَطارٍ، وقُلْ كلُّ هذا عيونُ
تتقرّى الذي كنتَ من قبلُ. (هل كنتَ ما يتراءى مُشَعْشِعاً كنداءٍ من المياهِ؟)
حَطّمْ جمْشْتَكَ يا قلبُ. حطّم يواقيت قلبكَ يا قلبُ. حطّمْ مساءَكَ. حطّمْ
تماثيلَ هذا البهـاءِ الـذي نسيَ المكانُ ثديبهِ قُرْبَهُ. حطّمْ فخاخك في سِحْرِ
صرختيَ الأبديةِ. حطّم قرونَ زهوكَ، وارفعْ منارَ الرمادِ حتى يدلّ قلبيَ قلبي

قد آن أنْ أستريح ، وحَسْبي
ذهبٌ وجوادٌ من النَّدى يبكياني .
قد دقَّ من كلّ آنِ
وصيْفُهُ عظمَ عظمي ، وَدَكٌ من كلِّ صوبِ
غديْ حضوريْ علـيَّ
أهذا يا عمرُ تكسو الأغاني
بدروعٍ يرتدُّ عنها إلـيَّ
ظلامُ عمرِكَ يا عمرُ، والوحشتانِ: النهارُ والروحُ؟ : فليتقاصرْ مَدايَ ، وَلْيكُ فَتْـكُ، فنَمْ في هباءٍ مزيّنٍ بالطواويس نقّشَهُنّ الهباءُ فوقَ ملاءاتِهِ، وتحيَّـنْ هبوبَكَ في قصبٍ يابسٍ ، فالرمادُ، هذا الأميرُ
يُحصي خنانيصهُ في خيامِكَ؛ يُحصي مِقصّاتِهِ، ويدورُ
بالأباريق يسقي البديدَ من كلّ شيءٍ، ويمحو
ما تحوكُ القلوعُ في الريح . يا قلبُ ضِيقٌ يُفتِّحُ اللآلىء في صدفاتِ الحنينِ،
أَمْ هو بوحُ
يُسرُّ قبرٌ به لقبرٍ؛ أنورُ
يرفعُ القناعَ بيني وبينك؟ يا للرمادِ، حشدُ أميرُ
فَكِهُ البيانِ، يُغوي، فيرتدُّ قلبي علـيّ
بشظايا من النهارِ إذ فجّرتْهُ الظلالُ شظَّتْ عناقيدها؛ بشظايا
من الحياةِ رقَّ هواها فبانَ منها هوايا.
أهذا يا عمرُ تكسو الأغاني
بـدروعٍ يرتدُّ عنها إلـيّْ
سهمُ كلِّ ظلامٍ ؟ عييْتُ، يا قلبُ، ثُمَّ عييْتُ:
سرقتني الزنابقُ فاشتاقَ جسمي إلـيَّ ، فعدتُ
مَرحاً، تتهادى المرايا
خَلفَ خطوي ، لكنّني سهوتُ
عن جسورِ الزنابقِ فاختصمتْ ضفّتاي حتى رأيتُ نفْسيَ تُرْخى بهذْرٍ علـى فـراغٍ كنفْسي

ورأيتُ المكانَ يسدِلُ أمسي
على المكانِ كأنيّ فَرَغْتُ من عبثٍ يُشرْكُ الهباءَ في شِـراكِهِ وَقْتُ.
ألهذا يا قلبُ تطوي جسوري
كمثلِ هذا اللّهاثِ يطوي اللهاثَ؟ أمْ هُوَ بأسي
يشفُّ عن رحمةِ الوردِ؟. يا قلبُ متُّ
واختصمتْ في رِحَابِ ظلاميَ أرضٌ؛ ومتُّ
وتهيأتُ ثانيةً للهبـوبِ فمتُّ
وتهيـأتُ ثالثةً للهبـوبِ فمتُّ
وتهيأتُ للحياةِ فشقَّتْ ثيابهَا عن صليلٍ، فمتُّ.

كلُّ قلبٍ معي،
كلُّ قلبٍ علـيَّ.
كـلُّ قلـبٍ هبوبٌ، وإنني في هبوبٍ يشقُّ بعضي إلـيَّ
ولهذا شُهُبٌ من نعيمِ الجمادِ تهوي على عُبَابي، ويصطادُ عمقيَ صوتُ
وأنا مقبلٌ كي يبشِّـرَ الزبدُ الحيُّ بي، ولكي تتدانى
في رُفاتي ملائكُ اللهوِ والصدى. كيفَ يا قلبُ شقَّ هوانا
صدفاتٍ من الأنينِ عن خيلاءِ الرمادِ؟. يا قلبُ هذا هوانا
ليسَ إلا ضربةَ الماءِ في حَلَباتٍ من الماءِ، والحاضرانِ مديحٌ وموتُ.

كيفَ يا قلبُ عدتُ
نَشْأةً من عويلٍ مُرَيّشٍ بأنينٍ؟.
كيفَ؟ هذا كميني
مُـحْكَمٌ كالغضارِ، لكنني لم أُصِبْ إذْ رُميْتُ فمتُّ.
وككلٍّ؛ كنعمةٍ دوَّرتها يدانِ من عسلِ النهبِ أرْقى إلى غبارٍ مكينٍ،
مُشرفاً من مساكب اليأس، أو من هديرٍ كيأسي

علـيَّ. بالله، يا قَلبُ هشِّمْ سِلاَلَكَ، وَلْتَكُ نفسي
سناجبَ ريحٍ هُرعْنَ في السروِ فانكشفَ السروُ عن قنصهِ المجنونِ،
ولأذْرِفَنَّ المكانَ من قهقهاتي، ومن مساميّ حتى
يعودَ من حوليَ الوقتُ محضَ شرودٍ، ويسردَ العَصْفُ شاني
فليس يُدْرَكُ شكلٌ بغيرِ ذعرٍ، وليس تُغوى المعاني
بغيرِ هذا الشهيق. يا لَـيَ، شتّى
يدحَـرجُ الرعدُ أعضائـيَ الذهبيّةَ، شتّى يُخَوِّضُ الطينُ بي حيواتٍ، وشتّى
يميلُ بي شفقٌ خلفَ تلك المناجلِ ـ تلك الأخيرةِ ـ تلكَ التي تتلألأ في شهوةٍ
من جمُانٍ.

أيُّ قَنْصٍ، إذاً، في الشِّعابِ أو في الثواني؟

أيُّ قَنْصٍ؛ هوتْ وعولٌ فبدّدْتُ بعضي أسىً علـيَّ وعدتُ
كي أراني، هنا، في ظريفٍ من الحطام، أو ثِقَلٍ ليس يُروى وإنْ رواهُ الرمادُ؛
كي أراني رفيفاً من المراثي إذا يرفُّ منها الجناحُ، والبُعْدُ بي يَنْقَادُ.

أيُّ قَنْصٍ؟ سيذرفُ الليلُ قلبي إلى الصباحِ، ويخُفي الأليفَ عنيّ الجَمَشْتُ
فَرَهيْـنُ المَشاعِ إنيّ، مطوّقٌ باللهاثِ الخفيفِ للماءِ، والحيُّ حولي حصادُ
والفضاءُ أسرٌ، فعدْ بي، يا قلبُ، عُدْ بي إلى مشاغلِ الريحِ حيث المكيدةُ
حبرٌ، وروحي
نساءٌ يداهمْنَ من حواري المغيبِ هذا العراءا.

سأمضي، ومن كلِّ سَمْحٍ

معي خرزٌ وشناشيلُ؛ أمضي كَثِيْفَ قَصْدٍ يشفُّ إذ يتناءى
ومثلي السهولُ تمضي فتنشقُّ عن كُنهْها الأعيادُ:
زَلْزَلٌ أنيسٌ، وغيبٌ يُذَرْذِرُ الجمادَ فيهِ الجمادُ.
وكَلَهْوٍ سيرفعُ الشَّكلُ أقدارَهُ؛ أو كمدْحٍ
سيعصفُ الحلوُ من كلِّ مَقْتَلٍ، ويبثُّ الغبارُ في فَتْكِهِ الإطراءا.

أيُّ قَنْصٍ؟ تفرُّ من سربِها الأعيادُ
والخفيُّ يلقي المراسي، فللحيِّ بَدْءٌ ظلالُهُ الأصفادُ.

والنعيمُ؟ حدِّثْ هوايَ. حدِّثْ هريرَ هذا الصباحِ. حدِّثْ مقاماً يضيقُ بالحيِّ. ما من صدىً. ضرباتٌ على الحبرِ. والآنَ؟. مَرحى زحامَ ما لا يزاحمُ. مرحى. الملاكُ يعبثُ بالقفلِ، والبابُ نزهتنا؛ البابُ همْسٌ من الظلامِ سارتْ بهِ الشفاهُ. لا. أبدٌ فَكِهٌ؛ أبدٌ من مشاغلِ الماءِ. خبزٌ هنا. لا تقلْ لي. فكاهةٌ، والقيامةُ أنثى. تقولُ؟ لا. للنعيمِ دمدمةٌ من غضارٍ، وللمراثي النبوغُ. لا. حدِّثِ العمرَ: كانتْ يداكَ؛ كانَ النشيدُ؛ كانتْ أباريقُ هذا الأليفِ تسكبُ همسي. نسيْتَ؟ حدِّثْ: مكانٌ غداً. هَرَبٌ. والفضاءُ؟ مرحى. غدٌ للمكانِ. بأسٌ تطأطئُ الريحُ من حياءٍ إذا يهُبُّ، وأنْسٌ
يدلقُ الغيبَ فوقَ الدروعِ ويرسو
بطيئاً، تموجُ أثداؤهُ الألفُ. أنْسٌ كثرثرةٍ من نحاسٍ. وقلبيَ؟ أوقفْ إوزَّكَ يا قلبُ يخبطْنَ صدري
وأوقفْ أيا مساءُ المساءا:
تعبٌ جهاتي، وللبعيد إذ يتناءى
لألأٌ من أمومةِ النهْبِ يُغوي جسوري.
وأنا، إيه يا المُرْتجى مَن فضاءٍ يضيقُ بالتدبيرِ

تسهرُ الحياةُ من وحْشةٍ علـيَّ، وتُهْريقُني الأقدارُ لَمّا رجعْنَ مثليَ ماءا.

لكَ يا قلبُ رُجْعي إلى الخفيِّ، أوْ لي رُجْعَى
إلى الكثيفِ بانتْ مخالبُ الطينِ فيهِ.
لي يا قلبُ رُجْعى إلى الشَّتيْتِ النَّبيْهِ
حيث ترقى السهولُ ثديّاً، والأفقُ يشكو إلى العماءِ العماءا؛
ألهذا تسهرُ الحياةُ من وحشةٍ علـيَّ، أَمْ أنَّ ماءا
يغرُفُ البرقَ من حبرِ هذا الهبوبِ أو من يديَّ؟ يا للتّيْهِ:
يذهبُ الحيُّ والمواجعُ تبقى
ويبقى الأنينُ يعدو بأختامِهِ التّذْييلُ.

أيُّ قَنْصٍ إذاً؟ طَبْعُ هذا المكانِ رَطْبٌ، وطيرُهُ التأويلُ
فاعتذرْ أيها القلبُ من سكونٍ يحطِّمُ الغَدُ فيهِ
رخامَ قبري، ودلَّ قلبي علـيَّ
فأنا ذلكَ الشرّيكُ همَّ أن يُري الأرضَ مِلْكها، وهمَّتْ
تِلْكُمُ الأرضُ ألاّ تُريهِ.

كلُّ هذا كمينٌ يليهِ ما قَدْ يليهِ.

نيقوسيا ١٩٨٤

منعطفاتٌ.
ظهيرةٌ من ريش.
دهاقِنةٌ يصفِون الليل.
غبارٌ مسحورٌ، وغدٌ كالعدّاء، يتهيأ لأزقّة الغيب.

المنعطف الثاني في «أفروديتي ستريت»

عَلِّقِ الليلَ،
عَلِّقَ الليلَ كقُبَّعَتكَ،
ونادِ حوذيَّكَ النهارَ، الواقفَ، في انكسارٍ، لصقَ عربتكَ الفارغة.

تسعونَ درجةً تحت النعناعِ،
وثلاثونَ فوقَ القُرُنْفُل.
تسعونَ درجةً تحت رحمةَ العضلِ الذي يتهدّلُ، رويداً رويداً، من فضيحةِ الخليَّة، ومـداهمـاتِ الأمسِ بأطفـالٍ يشبهـون النداءَ الكهلَ لغدٍ كَهْلٍ، فاقتربْ، أنتَ الذي تُعَلِّقُ الليَلَ كقبعتكَ، وتحَدِّقُ طويلاً في النهارِ، حوذيِّكَ، الواقفِ لِصْقَ عربتكَ الفارغةِ، ولا تناديه.
إقـتربْ أيهـا المُبَشِّرُ بقيامة العنب، ودينونةِ الريح؛ اقتربْ بدهاقِنَةٍ يصفونَ المســاء المختبىء في كلامِ الحديقة، ويتبادلون لفافاتِ التبغ المشتعلة تحت الغبـار الأليفِ الـذي غَطَّيْتَـهُ بهبـوبكَ الأليفِ، وانسَ مسافاتِكَ المرتبكةَ، ومساءَكَ الذي انزلقَ فأسندْتَهُ، فهويتما، معاً، في بلاغةٍ تتخطَّرُ بمسائِها الأنثويِّ.

تسعون درجةً، أنت، في النَّدى، أيها الدليلُ الى دَسَاكِرِهِ.

المنعطف الأول في «مكاريوس ستريت»، يميناً، قرب «وينبي»

دراجاتٌ ناريةٌ، وشبَّانٌ في سُتراتٍ دون أكمامٍ. وأنا فرحانُ، هكذا، دونَ أكمامٍ في قميصي، كأنَّما أمضي إلى ما فاتني من لُعبةٍ كنتُ أُتقنها؛ كأنَّما أمضي إليَّ، دون شِعْرٍ، أو بلاغةٍ مما يَنْسُجُ الألمُ الحلوُ؛ هكذا، إلى ما فاتني فأغضى لأنَّهُ فاتني.

وأنا شاعرُ هذا كلِّهِ: شاعرُ السماءِ الثانيةِ التي تنهبُها العجلاتُ؛ شاعرُ الدَّراجةِ الناريَّةِ، والقمصانِ التي لا أكمامَ لها؛ شاعرُ الصفيحِ المذهَّب، والمقابضِ التي تتشبَّثُ بها الأيدي الأكثرُ غضباً.
وللعضلِ، أيضاً، مُثُولُهُ في الذي سأدوِّنُ بأقلاميَ المعدنيةِ. وسأفسحُ قليلاً للسِّبَاب ذاتِ الطَّعم المراهق؛ سأفسحُ - في الذي أدوِّنُهُ - مساءً لي، معافى كألفِ مصباحٍ أماميٍّ في الدَّراجاتِ الناريَّة. أما هؤلاء المحدودون كمُطْلَقٍ غُفْلٍ، بقفازاتهم، وأزرارِهم الكبيرةِ كالنَّقْدِ المَسْكُوك، فسيكونُ لهم رِفْعةُ الفراغِ في كلِّ حِبرٍ، وحُنوُّ الفوضى على الأبدِ المُنْتَهَك.

دراجاتٌ ناريَّةٌ. قلبٌ ناريٌّ. وأنا ذاهبٌ إلى ما فاتني.

المنعطف الألف بعد الصاعقة التي تشبثت بي

سأدخلُ هذا البيتَ وأنا أُلقي بعظامي الى المدفأة.
سأدخلُ هذا البيتَ متشبِّثاً بالمكانِ الهارب، وبالقبر الذي يؤازرُني بكمائن الياقوتِ، وبالنمورِ الخضراءِ، الصّاعدةِ قوسَ الظلام المُبَارَكِ إلى شهواتي.
سأدخلُ هذا البيت من بابه العاشرِ، وفراغِه الأملسِ كدرجاتِ العتبة الثلاث، مقسِّماً حلوى الأمس شطائرَ كالأيدي، رافعاً يديَّ بمراوحِ الموتِ إلى الأزلِ المَحْرُورِ في قيودِهِ، إليَّ، إلى شركائي وهم يقذفون بأسرَّة النهارِ من شرفاتِهم العاليةِ، ضاحكينَ تحت الأقنعةِ الرحيمةِ، ولألأةِ الأعماقِ التي ينفخُ

فيها القياصرةُ الحمقى.

سأدخلُ هذا البيت.
سأدخل هذا البيتَ بي.
سأدخل هذا البيتَ برهائني الألف.
سأدخل هذا البيتَ بالأعاصير التي لم تُنْهِها الكتابةُ.
سأدخل هذا لبيتَ بشرودِ التراب، وجهامَةِ النُّطَف.
سأدخلِ هذا البيـ يـ يـ تَ، مُطْرِقاً كجَدٍّ يُخفي عنهُ أحفادُهُ حذاءَهُ الأخيرَ.
سأدخلُ هذا البيت، دونَ سلامٍ، متَّجهاً إلى المدفأةِ كي ألمَّ عظامي.

المنعطف الأول، جنوباً، حيث يتصل شارع «سباق الخيل» بـ «ناڤارينو ستريت»

لزفافي يحتشدُ العُنَّابُ. لزفافي تحتشدُ النّمورُ، ولسُلْطانيَ صَنَّاجاتٌ يتمايلْنَ في الحنين الذي يُقَلِّبُ المشهدَ ورقةً ورقةً، فاستريحي قليلاً أيتها القَيْنَةُ السارحةُ عن غِنـائها في حضوري، واسترحْ أيها الحاضرُ المُطْرِقُ أمامَ نِبالهِ الذهبيةِ، وقوسِهِ المكسورِ.

سيظلُّ مفتوحاً بابي للمَشْهدِ الذي يقلِّبني ورقةً ورقةً، وللغيب الباحث عن خواتمـهِ الضـائعـةِ؛ عن آلهةٍ في اللعبة العذبةِ التي نسجتْها شجرةُ الورد في حديقتي، وشجرةُ الصّبارِ في حديقةِ جاري. وكذا سيظلُّ قلبي أيضاً: مفتوحاً كصندوقِ أمِّي، حيثُ يختلطُ دقيقُ الحناءِ بالموسلينْ؛ بالكحل؛ بالأحزمة المُقَصَّبـةِ؛ بالخلاخيلِ؛ ببقايا فضاءٍ، بنباحٍ بعيدٍ؛ بيابسةٍ خلَفَ النباحِ؛ بمياهٍ خلفَ المعسكراتِ الشفيفةِ للأقدار؛ بطواحين من نرجسٍ؛ بلصوصٍ يشكرون البيوتَ التي لم يدخلوها؛ بشاقولٍ؛ برِفْعَةٍ لم يشهدْها الغبارُ.

سيظلُّ مفتـوحـاً بابي. سيظلُّ الغبـارُ مفتـوحاً لدخولكم، بالأحذيةِ ذاتها،

وبالسيوف التي تقاسَمْتُم بها خلافةَ الليل.
سيظلُّ الكلُّ مفتوحاً؛ الكلُّ الذي يمسحُ الغبارَ، بريشٍ من وِحْشَتِهِ، عن خوذةِ البارحة.

المنعطف الخامس، شمالاً، إلى مساكن لا أرها

هياكلُ أبنيةٍ جديدةٍ. بنّاؤونَ. طواويسُ شهوةٍ، وعواصفُ من شجرٍ يتحرَّى مَقْتَلَةَ الربح.
بنّاؤ
وو
 وونَ،
لا يتقنونَ من هندسة الظهيرةِ غير عَرَقٍ يتحدَّرُ إلى الأحزمة الضيّقةِ، والسراويل. هياكلُ زبدٍ تتوازى في بَطَرِ المُشَابِكِ الحديديةِ، وطواويسُ في الأبعدِ، الأبعدِ، المتناظِرِ بكمائنه الياقوتِ، وعواصفُ من شجرٍ - من فداحةِ شجرٍ - تتحرَّى المَقْتَلَةَ الأكثر ثُبُوتاً في الذي دوَّنته الجهاتُ بحبرها الدَّبقِ: ريحٌ. كذا يرشحُ الخبرُ. ريحٌ، ومَقْتَلَةٌ في الريحَ، و
بنّا
ؤونَ،
تتساقطُ من لهاثهم أدواتُ قياسٍ، وورقٌ مُسَطَّرٌ،
وسطورٌ من حسابٍ وذهبٍ.

إنه المنعطفُ الخامسُ، شمالاً،
حيثُ الهدهدُ الكوكبيُّ بين براثنِ النِّعمةِ وأنيابها.

المنعطف الثاني، شمالاً، إلى مساكن النازحين في «آيوس بافلوس»

لِيَدَيْكَ مَلْمَسُ فكاهةٍ، فاقتربْ بشفتيكَ من الخناجر الرقيقةِ هذه، التي

تتناهشُها القُبَلُ. وكُنْ جميلاً كعهدِ الفراغِ بكَ، دانياً تحت الأكيدِ المُرْسَلِ كشَعْرِ امرأةٍ، كأنما سيتلقَّفُكَ النهارُ كلُّه، واللّيل كلّه؛ كأنما سيتلقّفُكَ الغدُ بيدَيْنِ لا تتقرَّيانِ غيرَ الفكاهة؛ كأنما تُحيِّرُ الذي تحيَّرْتَ فيه؛ كأنما أنتَ والقُبَلُ، معاً، تتناهشانِ الفجرَ المُعَسْكِرَ بعَيَّارِيْهِ في الدُّراقِ.

ولا تنسَ؛ كُن جميلاً، نقولُ ثانيةً.
لا تنسْ ثيابكَ تلكَ، وعطرَكَ،
وخُفَّيكَ الورقيين،
وابتسامتكَ ذاتها،
وحركتَكَ التي توزِّع الحديقةَ شفةً شفةً، والفاكهةَ أنيناً أنيناً، وتجعلُ الحكمةَ أكثرَ جراءةً لتدخلَ على الأقوياء.
ولا تنسَ، بعد هذا، محبرتكَ الفارغةَ،
وبيانَ محاجِجكَ الصامتِ،
فأنتَ كفيلٌ باعتناقِ الصاعقةِ وأطوارِها.

المنعطف الذي يلي العمارة العالية، شرقاً، في «أفروديتي ستريت»

أشغالٌ كثيرةٌ، وصفائحُ من إسمنتٍ على الأكتاف.
غبارٌ شاغرٌ، ومُلْصقٌ مُهْملٌ لذكرى مُهْمَلَةٍ.
وأنا، في المدى الذي لا عَطْفَةَ فيه، من الشارعِ المرتطمِ بالعمارة العاليةِ، أقضمُ تفّاحتي، في انكسارٍ أملسَ كالنهارِ المعتمرِ قُبَّعَةَ السائحِ. لكنني أدّخر للهواءِ اليقظانِ شراكاً من الخرزِ والفاكهةِ، مُعَوِّلاً على الألقِ ليقطفَ لي مسافةً ثانيةً. وباحتكامٍ إلى الغبار أسندُ الشبيهَ بالشبيهِ، وألوّحُ بالعاصفةِ للأبدِ المختبىءِ في مواجعِ أزلهِ المختبىءِ، فإن تذكّرتني الهياكلُ هناكَ؛ الهياكلُ القانعةُ بغدِها الساهرِ على الأساساتِ وإسمنتِها، تذكّرتُ ـ أنا المتداولُ شِفاهاً كمناسِكِ الحياةِ ـ الأساساتِ الأُخرى، الظاهرةَ في الوميضِ المترَجْرِجِ كأثداءٍ

تُرْضِعُ البحر الذي يتسلَّقُ الضّجرَ إلى دفتري.

أشغالٌ كثيرةٌ من مياهٍ؛ أشغالٌ كأصواتِ الباعةِ، وبروقٌ تتسوَّلُ أسرارَ الصَّيف.
أشغالٌ،
وإسمنتٌ،
ومراجيحُ شفيفةٌ في الطعنةِ الشفيفةِ.
أشغاااالٌ،
والكمالُ المُرائي يستعرضُ الملهاةَ بشقيقاتهِ.

المنعطف الثالث بعد جحيم «آيوس ديميتيوس»

كلامُكَ جارحٌ. جسدُكَ جارحٌ. العاصفةُ تستلقي على سريركَ، وأنتَ مشغولٌ بزهرةِ القُثّاءِ التي ترتفعُ كَلُهاثِكَ إلى عَسَلِ سِفَادِها. أينبغي إيقاظُكَ؟ ابقَ على الحالِ تلكَ، تتهامسانِ أنتَ والعراءُ، يدُكَ في يدهِ كخَليْلَيْنِ، ونَفْسُكَ تهيّىء الأباريقَ الصلبةَ للنُّدماءِ الغرقى.
ابقَ على حالِ الشفق، تأخذِ البعيدَ في جِبايتكَ، ويأخُذْكَ البعيدُ في جِبَايته، كأنّما يحُاكي أحدُكما الآخرَ بثرثرةٍ لا أثرَ للملحمةِ فيها.
ومجدُكَ جارحٌ أيضاً، وسطَ هذا المكانِ المضرَّجِ بأُمومةِ التعب؛ جارحةٌ هِبَاتُكَ، وللمكانِ بين يديك تصاريفُهُ الدمويَّةُ. فابَقَ على الحالِ تلكَ؛ ابقَ كثيفاً يتسترُّ بكَ الليلُ في افتضاحِ يقينِهِ، ويُمْليكَ على عَديدِهِ الهواءُ الواحدُ.
واصعدْ،
قليلاً،
قليلاً،
هذه السنابلَ المظلَّلَةَ بأثرٍ من جهالةِ الصِّبا، وتوسَّطِ الظهيرةَ بجهالةِ الآنَ، إذا الأثيرُ أنتَ كَجَلَبَةٍ تتقدّمُ غِلْمانَ الموتِ في عبورِهم المُحْتَشِم.

غير أنك في المنعطفِ الثالثِ، بعد جحيم «آيوس ديميتيوس»:

تحاولُ فتأتلفُ،
وتنسى فتأتلف،
وتُحكِمُ الدَّسِيْسَةَ فيعبثُ بكَ ا لعِنْبُ.

المنعطف الذي يلي المنعطف ذاك

بكثيرٍ من ضراعة اليأس إلى شَبَهِهِ أضرعُ إليَّ. أنا المتماثِلُ النَّظيرُ. أنا اللهاثُ الآخرُ، المزاحمُ بشبحه الأشباحَ. أنا الخسارةُ المُجَنَّحَةُ، والمُساءَلَةُ التي تكتبونها على أقداركم. أنا. ولأيٍّ أشغلُكم بي، أو أشغلُ نفسيَ بكم؟ ستمضون من هنا، وأمضي من هناك: فراغانِ في الكلمةِ المقسَّمَةِ ملاكاً مَلاكاً. وإن نظرتمْ إليَّ بعينِ إلهٍ كَمَمْتُ الحياةَ بمصادفاتٍ كالمناديلِ، ونصبتُ العَرَضَ على أقاليم الجوهر، مُباركاً تلك الشفةَ التي تلمسُ الجنونَ عن شهوةٍ، لاَ عن رياءٍ.
وببعضي، لاَ بالكثير الذي يستهوي المجدَ الحيرانَ، أقايضُ البرقَ على فِتْنَةٍ كالمغيبِ؛ ببعضي أجعلُ المساءَ فِخاخاً، لا بالكثير منيّ الذي تصيَّدَ الحجرَ الآدميَّ. ببعضي أنـا... يا لَبَعْضٍ يطيبُ في هلاكِ بعضهِ؛ ياللبقيةِ التي تتساقطُ أجاصاتُها على دروعِ الموتى.

بكثيرٍ من ضراعةِ الموتِ إلى ضجرِه، إذاً، أَضرَعُ إليّ،
بكثيرٍ من جمَالٍ كثيرٍ أعاهدُ الخفيَّ، وألوّحُ للبطولةِ بانهيارِ الأسرى.

بكثيرٍ مّا، يا شقيقي، بكثيرٍ مّا..

المنعطف الثاني، شمالاً، بعد «بنك أوف سايبرس» في «ناڤارينو ستريت»

لمسةٌ تتقدمُ إلى ذاتها، عاصبةً جبينهَا الذهبيَّ بدلالِ الذِّكَرِ، وقيَّافٌ يؤاخذُ المسـاءَ بجـريرةِ الفجـر. فرامـلُ آلياتٍ، ونبالٌ ضاحكةٌ: مالَكَ لكَ، وما

للصَّخب للصَّخب.
وشقيقاتٌ، أيضاً، يتكلَّفن، في مرورهن بالمنعطفِ الثاني، فِتْنَةً ليست لهنَّ.
شقيقاتٌ كإطناب لا بيانَ فيه: مالَكَ لك، وما للصّخب للصّخب.
كنتُ أمضي، أبداً، إلى بيتي الأول، من هنا، ناظراً إلى السياج الصدىء، وإلى الواجهةِ الزجاجيةِ للمحلِ الفارغ؛ ناظراً إليَّ في دهاءِ المُسَيْطِر على لعبةٍ لا خسارَةَ فيها؛ ناظراً إلى ما يدّلني خطواتٍ في الألق؛ في مساربه، كأنيّ ذاهبٌ نحو لمسةٍ تتقدّمُ إلى ذاتِها، عاصبةً جبينهَا السُّكَّريَّ بدلالِ الذّكَر.

كنتُ أمضي، عشر شهورٍ، إلى بيتي الأول من هنا، دون أن أصرخَ: احمني أيها الوقتُ من رَطانَةِ الجسدِ؛ احمني من ظلالٍ تسرقُ الثرثرةَ الحلوةَ في الفاكهةِ. والشقيقاتُ الأربعُ، أيضاً، كن يمضينَ إلى بيتهنَّ من هنا، كمصادفاتٍ ترتدي مراويلَ الخَدَم. وكُنَّ يحُيِّنني بغَدٍ ثَمِلٍ، فأُحَيِّهُنَّ بِغَدٍ يقظانَ، يتهيّأُ كالعَدَّاءِ لأزِقّةِ الغَيْب.

من هنا كنتُ أمضي إلى بيتي الذي توارى خلفَ لمْسَةٍ تترصَّدُ ذاتهَا.

المنعطف الثالث، جنوباً، في «آيوس بافلوس»

لا لأكونَ طِفلكِ بعدَ الآنَ، بل لتكوني طفلتي.
لا لأكونَ نباهَةَ الجسدِ، وتأويلَهُ، بل لتكوني رهانَ الجُسُور.
لا ليكونَ المكانُ مُساءَلةً،
لا ليكونَ الأكيدُ.

رِفْعَةً رِفْعَةً يتحلّقُ الجمادُ، والنعيمُ الواحدُ، المُتَهتّكُ تحت مساكب ليلنا، ينسى خُفَّيه هناك، وينسى الرمادُ أقلامَهُ. وأنتِ، كعضلةٍ في الجناحِ الأكثر خَفْقاً، تتجمَّعينَ من ألقٍ ورذاذٍ تحت ثدييَّ. فلا يُقْسِمَنَّ المكانُ بكِ؛ لا يُقْسِمَنَّ النبيذُ؛ لا.

لا ليكونَ عَرَضٌ، بل كثيفٌ، حُمّى،
لا.
لتكنْ قطيعةُ الأقوى. لتكنْ، لتكنْ أنتَ،
فالقصيُّ يتشاغلُ بكَ عن مجراهُ الساخر، وتتشاغلُ هي - التي أوّلْتك تأويْلَها الأنثويَّ - عن مراتبِ الليلِ بين يديكَ بأقواسِ الصباحِ العاري.

والمنعطفُ؟ ليكنْ، ليكنْ.
هي طفلةٌ فصَّلَتْ أُبوَّةَ الماءِ، وأنتَ رحِمُها المشتعِل.

المنعطف، ما بعد بائع المثلَّجات

ما الملوكُ؛ ما الأفق الدائرُ كالمغزلِ في ثبوتهِ الأعمى؟ ما الرهانُ؛ ما المهرِّجُ الحليفُ؛ ما الرّكائبُ التي تتقطّعُ أحزمتُها تحت الوطأة الثانية؛ ما الفضيحةُ التي لا تؤرِّقُ الحاضرَ؛ ما المساءَلَةُ في شأنٍ يتزيَّنُ للمُساءَلَةِ؛ ما المجادلةُ؛ ما الشّجارُ الصاخبُ؛ ما التّواترُ؛ ما الحمَّى في هذا كله؟
أليفٌ مما يغزلُ الصِّبْيَةُ الضاحكون؛
أليفٌ من ترفٍ يتلمَّس المنعـطفَ بمراوحهِ، لاهثاً مثلما رئةٌ تنفثُ الجدالَ؛
أليفٌ يتحلَّقُ حولَ أطفالٍ يسألون البائعَ، بنقودهم الذائبةِ، فتوى الجليدِ، في المنعطفِ الأولِ، شمالاً، إلى سور المدرسة؛
أليفٌ أحمقُ، تتشيَّعُ لِحُبَابهِ الظهيرةُ والنوافذُ؛
أليفٌ كالرِّهانِ على غامضٍ؛
أليفٌ كحديدٍ مُدَوَّرٍ؛ كسياجاتٍ؛ كصرخةٍ؛
أليفٌ في احتكامي إليهِ، في اقتصاصي منهُ، وشكوايَ عليه.

بيني وبين الأليفِ ظلالٌ تشحذ الخناجرَ للظلال.
بيني وبين الأليفِ بائعُ مثلَّجاتٍ، وياقوتٌ يتساقطُ حَبَّةً حبةً من الخاتمِ الأكبرِ لخليلتي التي بعثرتِ المكانَ.

في المنعطف الآخر أيضاً، حيث يصل «أفروديتي ستريت» بـ «آيوس بافلوس ستريت»

المدرسةُ، هناك، قانعةٌ بالذي لها: بالسياجِ، وبالأطفالِ الذين فتحوا ثغرةً في السياجِ؛ ببائعِ الحلوى النعسانِ قرب الثغرةِ في السياجِ؛ بطبعي الخفيِّ كأجاصةٍ من رمادٍ تَتذَرْذَرُ فتلتمُّ في الثِّقلِ الأكبرِ لشجرةٍ مُتَهتِّكَةٍ.
قانعةٌ

هي،

وهي، كمدرسةٍ، لها سياجُها، وأطفالُها، وثغراتٌ في السياجِ يعبرها الغدُ الشرطيُّ بحقيبتهِ الملآى سياجاتٍ، وأطفالاً، ومدارسَ من رمادٍ تَتَذَرْذَرُ فتلتمُّ في الثِّقَلِ الشَّتيتِ لأيَّامنا.

هكذا، إذاً، في المنعطفِ ذاكَ، تأخذُكَ الحكمةُ من مسائِكَ، لِتدْخلَ شريداً إلى مسائها. هكذا، إذاً، غريقاً حتى رعبك في الوردِ؛ غريقاً في الهمهمةِ المدوِّيةِ لشجرةِ التّينِ، يسرقُكَ السياجُ بفخاخِ حُرِّيتهِ.

وفي المنعطف ذاته، الذي يصل شارع بيتك بآخرَ (أفروديتي ـ آيوس بافلوس) لا تُلْق بنظرتكَ على ابنةِ الجيرانِ الواقفةِ تحت غمغماتِ روحها، بل على المدرسة، كأنَّما يستيقظ الغَيبُ كلُّه في يديكَ، بدفاترهِ وحبرهِ؛ كأنَّما قَدَرٌ يلقي بحقيبته عالياً فيتناثر الورقُ، والأقلامُ الرصاصُ، والمبراةُ، والشتاءُ الذي تشمُّ في قدومهِ مشاربَ الآلهةِ المكتوبةَ على قميصِ كهولَتِكَ، المفتوحِ حتى آخرِ أزرارِ حماقَتِهِ.

المنعطف الأول، إلى جهتي

حين تحنُّ، طويلاً، إلى المكانِ، لا تَعُدْ إليه.
حين تحنُّ إليَّ، طويلاً، اقتلني.

ماذا ينبغي عليٍ لأشرحَ المسألة؟
الملوكُ ذاهبونَ إلى نيسانَ؛ الشعوبُ ذاهبةٌ إلى نيسانَ، والأبد، الذي انحسرتْ عن كتفيهِ عباءَةُ جدِّي، ذاهبٌ، معي، إلى نيسانَ. نيسانُ ذاهبٌ معي. نيسانُ ذاهبٌ إلى أبوَّتهِ، وهو ينثرُ الودعَ على ما تبقّى من جُسُورٍ وهزائمَ تتلفَّعُ بالبطولة الماكرة.
وأنت، الذي تحنُّ إليَّ طويلاً، لا تقُلْ لنيسانَ عنيّ ما يقولُهُ الأنينُ، ولا تكشفْني بحبِّي هذا؛ بجسارتي المتناثرةِ هذهِ، على البهو الذي تَرَى في آخرهِ سريري، وتَرَى الوَرَثَةَ يشقُّون الوسائدَ بحثاً عن ممالكي. ولا تحمِني بصرخةٍ، أو بحرابٍ كالتي شحذتْ نصالَهَا أراملُ الفجر، بل أوصدِ البابَ عليَّ وعلى نعشي المرصَّع بفروجٍ متلألئةٍ، وأنصتْ من خلفِ الستارةِ تلكَ - ستارةِ المشيئةِ وعُمّالِها المتشاجرين - إلى قناعي الذي أتركه على سريري، وأصعدُ الأصيصَ النحاسَ، الذي يتدلىّ من السقفِ، مُلْتَجِئاً إلى حَرَم لمعدن وأزْرِ نقوشِهِ.

ماذا ينبغي عليَّ؟
ماذا ينبغي على المكانِ الذي لن تعودَ إليهِ؟

المنعطف الذي يصل سور «سباق الخيل» بآخِر «أفروديتي ستريت»

الخوذةُ ذاتها تسقط، من الشفق ذاتهِ، على حلبةِ «سباق الخيل»، قربَ بيتكَ في «آيوس ديميتيوس»، وأنتَ تهمسُ الى الخَوذةِ ذاتها، وإلى الشفقِ ذاتهِ: إلهي، بكيتُ كثيراً من أجلِ هذا العالم.

وستبكي كثيراً أيضاً، على الجبهةِ ذاتها، المهيّأة منذ أزَلٍ عالٍ كحذاءِ فتاتك. وستبكي معك حجارةٌ لم تحملها، وبيوتٌ استسلمتْ لقضاءٍ غضبانَ يضربُ بقفّازهِ الأسمنتيِّ غَدَكَ الغضبانَ. ستبكي نوافذُ لم تنظرْ منها إلى الحيرة المرتدية قُلُنْسُوَةَ الطّاهي، وكذلك الأبوابُ وهي تَصْطَفِقُ بِدَفْعٍ من الأيدي المغسولةِ

بظهيرةٍ سَكْرى.

الخوذةُ ذاتها، والبكاء ذاتُه.
الخوذةُ الخوذةُ ذاتها، في حلبةِ «سباق الخيل»،
يوماً بعدَ آخرَ،
وغضباً في عقبِ غضبٍ.

معدنُ سَلْسَبيلً، ودمْعُ رقَّشَتْهُ أزاميلُ صغيرةٌ، هنا، حيثُ استطْلعُ من شرفتي أكمامَ الوردِ في الحديقة، وطيشَ الحكمةِ وراء السياجِ الأبعدِ، في انخطافٍ أبعدَ مُدَوٍّ، يصلُ صرخاتِ المراهنينَ في حلبةِ «سباق الخَيل» بالأفقِ الخسران.

إلهي، بكيتُ كثيراً من أجلِ هذا العالم.

المنعطف، في ماوراء المنعطفات المذكورة

بخيَّالَةٍ من مذاهب الوردِ اقتحمُ هذه النظائرَ المكنونَةَ، وبأسرى، ممَّن تسلَّلوا إلى مرحي، أتسلّل إلى سكينـةِ المـرئيِّ، حصينـاً بأقداريَ الخفيفةِ وخطابي الخفيفِ. فإن استعادني غدي منيّ فَلْيَسْتَعِدْني حيرانَ، مطوِّقاً أمسيَ الأنثى بحصـافـةِ النَّباتِ. وليُطْبقْ على يديَّ بقيدٍ شفيفٍ، لرنين خلاخيله قُزَحٌ، وأقواسُ قُزحٍ، ومراتبُ في الصوتِ خفوتها تسبيحٌ، واغتلاؤها مشارفُ يُلقي أسرايَ منها عليَّ فكاهةَ الغيب كلِّه. فليُطْبقْ على يديَّ بريشٍ، أو بصريرٍ من أقفالِ المديحِ؛ وليكنْ، كأيِّ غدٍ، مُغْلَقاً على قناعهِ المضيء، وصخبِ نجّاريْه.

حِليُّ الغد، كلُّها، هنا.
إصطرلابُهُ، أيضاً، ومِسْحَاجُهُ.
وهو، بأسلابه، مشافهةً، يتقاطعُ والريحَ، كأيٍّ لَهُ جسارةٌ من رمالٍ؛ كأيِّ

بَذْخٍ ؛ كإطراءٍ يكاشفُ الهواءُ به الهواءَ.

غدٌ يكلِّمُ الأشباحَ كما تكلِّم الملوكُ الملوكَ، ليرُجعني إلى غدي.

المنعطف الحادي عشر، جنوباً، إلى حاجز الجيش اليوناني، في «آيوس بافلوس»

بشفةِ الحقيقةِ، ولسانها، يثرثرُ هذا السّاترُ الترابيُّ، على مسمعٍ من الشاحناتِ المسرعةِ، والنباتِ المسرع.

إحدى عشرةَ سنةً، بخُوَذِها؛ بفتور خُوَذِها؛ بالفتورِ الأكملِ لهياكلِ عماراتٍ مؤجَّلَةٍ، يثرثُر هذا السَّاترُ الترابيُّ، الذي لم ترتفعِ بنادقُ من حولهِ، بل نباتُ أسَّسَ الفتـورَ الأكملَ بحاسباتِهِ الرَّطْبةِ، متسلِّقاً الحَدَباتِ إلى نظامِ المغيبِ المُعَسْكِرِ هناك.

ساترٌ ترابيٌّ،
وهُدنةٌ تقتفي الأثَر الضائع لأرضٍ ضائعةٍ.
فإنْ مَرَرْتَ، أيها الحليمُ كجزيرةٍ تتفيَّأ العابرينَ، بالسَّاتر الترابيِّ، في المنعطفِ الحـادي عشر، جنـوبـاً، في «آيوس بافلوس»، تذكَّرْ هدنةَ الوردِ، وحشودَ العنب، ثم مِلْ على العسكريِّ المدجَّجِ بخَفَرِ ثيابهِ، وقُلْ: أسْعِدتَ وقوفاً أيها المحارَبُ؛ أسْعِدتَ خوذةً.

شفةُ الحقيقةِ، ولسانُها، يحُرِّضانِكَ على البعيدِ العاري خلفَ السَّاترِ الترابيِّ.

المنعطف المنسيّ، هناك، بعد العمارة الثالثة

ما ليقظةِ الحُبِّ هذه، ما لأنقاضٍ تتراصفُ طفلاً طفلاً في مراياي؟ فلأمتْ

لأجلكِ. فلأمتْ. فليمت النهارُ لأجلكِ. فليمتِ الحيُّ بيتاً بيتاً لأجلك. فلتمتِ الحديقةُ، والمدرسةُ، هناكَ. فلتمتْ حلبةُ «سباق الخيل»، والشارعُ المجاورُ، ودكانُ مصففةِ الشَّعْر، والميكانيكيُّ الذي جمعَ في الساحَةِ هياكلَ المركباتِ، كأنَّما يهيِّىء للقيامةِ عجلاتٍ من مطاطٍ، ومصابيحَ مكسورةً، ومقاودَ لا تديرها الأيدي. فليمتْ لأجلكِ العراءُ الذي يجاورُ بيتَ العجوزيْن، هناك، إذ لا يُشغلانِ أحداً بلعبتهما في الموت السكران لضجرِ سكران. فلْيَمُتْ هيكَلُ العمارةِ الجديدةِ، ودراجةُ شرطيِّ المرور الناريَّةُ، وسلالمُ بيتهِ. فلتمتْ شجيرةُ الحبَق، والأصصُ الأخرى، المتراصَّةُ على السور الاسمنتيِّ الـواطىءِ. فلتمتْ الخيلُ التي تُرى أذيالُها القصيرةُ من خَلَل الشجر المقامر بأشكالهِ. فلتمت الهررةُ الشريدةُ، والشّقَقُ التي افتتحَها «الإخوةُ الماسونيونَ» لِصْقَ سورنا الغربيِّ. فلْيَمُتْ محلُ بائعِ المثلَّجاتِ لأجلكِ؛ فلتمتْ صحُفُه المعروضةُ في الواجهةِ. فلتمتْ أحذيةُ الفتياتِ، بنقرها المتدرِّج تحت ثِقَلِ الأفخاذِ المليئةِ العارية؛ فلتمتْ شفاههنَّ التي تتلألأ عليها بقيةُ البقية. فليمتْ لأجلكِ ما نسيتُ من مشاغلِ الحَمَامِ في أقفاصِه. فلتمتْ شجيرةُ الفلفلِ التي أحبُّها.

فليمتْ لأجلكِ ما تريدينَ أن يموت،
ولتموتي، أيضاً، لأكتبَ ما تبقّى.

المنعطف الذي يصل «تشرشل ستريت» بـ «نافارينو ستريت»

الصناديق في كل مكانٍ. رافعاتٌ من مكائدِ الحقولِ ترفعُ التُّخْمةَ كغمامةٍ فوق الصناديقِ المتناثرةِ في كلِّ مكانٍ، حيثُ تغزو «التعاونية الاستهلاكية» رصيفَ الشارعِ ببطّيخها، وقُنّبيطِها، وخَسِّها، وبازلاّئها، وكَرَفْسِها، وقُثّائها، وقوارير الغازِ، أيضاً، المقيدةِ بسلاسلَ، إحداها إلى الأخرى، كأسرى حربٍ في الجهةِ الثانيةِ من ظلالنا.

. . . والنساءُ يحتشدن؛

الفاكهةُ تحتشدُ،
والفضولُ الأبكمُ لغبارِ الرصيف.

خُذْ ما تشاء،
رخيصٌ هذا، ورخيصٌ ما يجاوِرُهُ.
وتذكّر رصيدَكَ في البنكِ الذي يكاد يتّصل بناؤه بـ «التعاونية الإستهلاكية»، ففي ذلك ما يشغلُكَ عن صباحٍ مهزومٍ أمامَ ظهيرةٍ مهزومةٍ. ولا تنسَ الليلَ الذي سينزلُ ثقيلاً، كأنما يهبطُ من شجرةِ الكستناءِ، بصيارفتِهِ الغامضينَ، وجرائهِ المغسولةِ توّاً بماءٍ فاترٍ؛ ثقيلاً سينزلُ على سطحِ بيتكَ، وسطحِ المبنى الذي يجاور بيتكَ، وسطحِ ما تبقّى من عالمٍ مسقوفٍ بمآتمَ مغرورقةٍ كعينيك.

الصناديقُ في كلِّ مكانٍ: عنبٌ ورعبٌ. غدٌ ويَقْطِينٌ. هزيمةٌ وجرجيرٌ. والنعمةُ، التي تتوسّلُ إلى المارَّةِ، بطاستِها التوتياءِ، تغمزُ بعينيها، كأنَّما تمتحنُ المكانَ بِعَبَثٍ كالذّهب.

المنعطف الأول، شرقاً، إلى المدرسة في «آيوس ديميتيوس»

إن سألتَ يا بيتي، الذي ليسَ لي، عن سُكْني كشغفِ اللَّهبِ بنسلهِ، فلا تُقَسِّمَنَّ جوابي بينكَ وبين الحاضرِ المتسوِّل تحتَ النافذةِ الجَنوبية، حيثُ العدّاؤون بقرونٍ عظيمةٍ لحيوانات الفجر. بل امتحنْ أبوابكَ، وجدرانكَ المتأبِّطَةَ حجارَتَها الرحيمةَ، وتخلَّعْ قليلاً لَتتذكَّركَ أرضُكَ المنسيَّةُ في جمالِها المنسيِّ.

وبإذنٍ منك، وباعتذارٍ خجولٍ، يا بيتي الذي ليس لي، سأدلقُ الحَيَّ من قارورتي، شجراً، وسياجاتٍ، وحماماً في الأقفاصِ، وأطفالاً صاخبينَ، ووروداً، وقُبلاتٍ لا تصلُ، وهريرَ آلاتٍ لم تُفْطِمْ جراءَ حديدها بعدُ، وضَبْحَ خيولٍ في مِرَانِ عَدْوِها بُكُوراً لسبتٍ آخرَ، في حلبةِ «سباق الخيل» ذاتِها، لِصْقَ

السياجِ غير البعيد ذاتهِ، الذي أراهُ من حديقتي.

آه يا بيتي الذي ليس لي،
أنتَ لستَ لي.

كذا عليكَ أن تهمسَ صراخَـكَ، فالمكـانُ ليسَ لَكَ. السياجُ، والشارعُ، والزهرُ البريُّ اليابسُ، في العراءِ المنظور، ليسَ لكَ. المديحُ وأنقاضُهُ كذا، والمُتَبَارَكُ من غُنُم. رديفُكَ المُسَمَّى. لجْلَجَةُ الحطامِ بين يديكَ كذا، وكذا غَلَمَةُ الشفقِ العريْسِ وخُطّافاتُ ذكورَتِهِ.

هيىءْ لي، إذاً، يا بيتُ، نعمةَ عبوري بكَ إلى ما ليسَ لي.

المنعطف الذي يحجبه الشجر، في الجهة الغربية من حديقة جاري

رخيمٌ هذا البرقُ كُقبَّعاتٍ تُرمى من شرُفاتِ الفراغِ، وبي، أنا الذي يرى ثِقَلَ صباحِهِ المُنْشِدِ، هيامُ نباتٍ، وأزيزُ الطَّلْقةِ التي تُضرِمُ الحروبَ.
وبي،
أيضاً،
نزفٌ غنيّ عن تعريفهِ كلُعبةِ طفلةٍ؛
بي حذاقةُ الشارعِ الذي يجاورُ البيتَ،
ووضوحُ الصَّخبِ في قُبلةٍ خفية.
لكنني، بجهـامـةٍ كالصبـاحِ، وشؤونٍ منسـوجـة كشجرةِ اللوبياءِ، أحيطُ بنفسي، وأحيطُ بالـذهب الذي يسمِّي لساني لساناً، وكلامي رنيناً في رنين المعدنِ، حتى إذا تساوتِ الشُّبهةُ والقَدَرَ كسوتُ الغدَ باطناً من جمادٍ، مُرْجِئاً ثِقَلَ الورد إلى فراغٍ آخر.
وأرجىءُ شؤوني أيضاً، ناظراً إلى ذلك العجوز الذي لا يشغلُ أحداً بلعبته.
هو، وزوجُه، أبداً، في الحديقة الميتةِ؛ في الموتِ السكرانِ لضجرٍ سكران.

ولربما هتفتُ: قليلٌ سيمضي معي إلى مثواي، قليلٌ سيمضي معهما إلى مثواهما.

.. والحديقةُ ستمضي، السياجُ، وأعمدةُ الكهرباءِ، وزجاجُ الواجهةِ في مَشْغَلِ النِّجارَةِ قربَ البيتِ، وحلبةُ «سباق الخيل»، والخيلُ، والمنتظرون، بأوراقهم، ظهيرة السبتِ، ليهتفوا هتافهم الرَّتيبَ في رهانٍ رتيبٍ؛ كلُّهم سيمضون الى الغامرِ المُدَقِّقِ، كشرُطيٍّ، في أرواحِهم المُرْتَجَلةِ.

سأرجىء شؤوني،
سأرجىء ثِقَلَ الوردِ الى فراغٍ آخر.

كمائن في المنعطفات كلِّها / ختامًا مّا - سهمٌ

الَّلبوةُ الذهبيَّةُ تصعدُ بجرائِها الملهاةَ هضبةً هضبةً، والشهودُ المتكئونَ، بمعاطفهم الترابية، على سور أقدارنا، يُقلِّمون أظافرهم في إهمالٍ، غير عابئين بالجسارات الكبرى، والعظامِ التي تتنادى إلى بَيْعَةٍ تحت القمرِ الآدميِّ.

والمكانُ يصعدُ الملهاة بحقيقة الغبار، درجةً درجةً، وسط تيجانٍ مُهْملةٍ، وشموسٍ يلمُّها الهاربونَ. أمَّا الخيَّالةُ المقبلون من فراغٍ آخَرَ، حاضنين جماجمهم، فيحارون قليلاً في تصنيفِ المشهد. غير أنهم، بإيماءةٍ واحدةٍ، يصعدون الملهاةَ، أيضاً، تتقدّمهم كلبةُ الفتنةِ بأثداءٍ لم يزلْ على حلماتها أثرٌ من لُعابِ الملوك.

هكذا يترصَّدُ المشهدُ ذاتهُ من مشارفِ الحقيقةِ؛
هكذا يكتملُ المنذورُ.

وأنتم، إخوتي الجالسون في نفق البلاغة، هناك، ناسينْ أن تسردوا لي تمرُّدَ الحكاية، وانقسامَ الرّواةِ، لا تنتظروا أكثر؛ لا تنتظروا أن ينسى المشهدُ

فضولَكم فيختزلَ القتلى، وأن تتبادلَ السماواتُ المهشَّمةُ مفاتيحَها المهشَّمةَ. وباليد اللدنة كَشِفَافةٍ تسرقُ القُمُراتِ، تلمَّسُوا عذابَ الماءِ، واتخِذوني شفيعاً لدى المغيبِ يُغويهِ الأكيدُ فيتبعثرُ خطابُهُ.

ليس لي غير هذا،
ليس لإخوتي غير هذا،
فإنَ يَضْمَن الحجرُ كثيْفَهُ المُهْرَقَ ضَمَنَّا الأقفالَ الرقيقة كَنداءٍ، مُقْدمْينَ على شُكْرٍ تَنسرَبُ من خُرُومهِ المآذنُ والسروجُ. وبطشاً إثرَ بطشٍ سَنُلهمُ الروحَ نَشْرَهَا الأجملَ، دون أن نُعلن في الشهودِ ـ المتأبطينَ محاوراتِ الهياكلِ، وظلالهَا، والمغيبَ الذي يصعدُ الهياكلَ وظلالهَا إلى ملهاتهِ المُعادَةِ ـ سِحْرَ الكلامِ في انكسارهِ كُلَّما اسْتَلهم المُعادَ الفَرْحان.

ليس لنا غير هذا الذهبي
ليس لنا غير هذا المشهد

والأكيدُ لبوةٌ تتقدَّمُ، بجرائها، عربةَ الغبار.

نيقوسيا ـ ١٩٨٥

خزائن منهوبة

ليَكُنْ ليَ اقتدارُ ببَّغاءٍ حتى أردِّدَ الأرضَ. ليَكُنْ ليَ وعيدُ الوردِ للورد. ليَكُنْ ليَ الألقُ هذا، المَقْوُدُ بكلبٍ واحدٍ ونَعَامةٍ واحدةٍ. ليَكُنْ ليَ ما نسيهُ المُنْحَنُوْن على الأفقِ ـ الفقيدِ. ولأكُنْ هناك، في اللعبةِ التي يعثر فيها الدّمُ على حُواتِه، فأنا في مستطاعي أن أدلَّكُمْ على عرينٍ ذهبيٍّ يُغوي البراعمَ، فابـدأوا بي؛ ابـدأوا الغَمْـرَ الذي نرفعُ في طينهِ الحيِّ ريحاً تلمسُ الشفقَ بأثـدائهـا، وابتسموا، قليلاً، إذ يدخلُ الكمَالُ، كالبستانيِّ، إلى نشيدنا؛ ابتسموا إذ أكملُ إنكساري بالمشيئةِ التي تتّكىءُ على العظام.

وبي يتوعَّدُ الوردُ الوردَ.

بي ينذُر المكانُ المكانَ،

كـأنْ أباطرةٌ سيمتحنونَ ما هُيِّئُوا لَهُ.

والـذي حولي هو حوليَ: أسـلافٌ يهيئـون مشيئـةً أخـرىٰ بآلاتهم الصَّلدةِ، إذ أراهم، من هنـا، تحت الـظلِّ الأكبـرِ لجنـاحَيِّ البازِ الأكبر، يتخاطرون كعرانيسِ الذُّرَة، والغدُ المُخْتَلِسُ يُريهم ما أريهم أنا من مَطَالَعَ حَالَتْ حواشِيُّها بِنَفْخٍ يورِّثُ الروحَ اختلافَها.

. . والوردُ يتوعَّدُ الوردَ،

كأنَّ الموتَ ضالعٌ في اختلاقِ الحيِّ أشباهَهُ الحيَّةَ؛

كأنْ سَهَرٌ بليغٌ يُملي على النومِ، بشفاهِ أَلْفٍ، رنينَ التَّاجِ الذي هوىٰ.

فما الذي يدوِّنُ المدوِّنُ آنَ يختلقُ اليأسُ، كالحيِّ، أشباهَهُ المرحيْنَ؟

بي ينذرُ المكانُ المكانَ،

والمرابيُّ الوردُ يتوعَّدُ الوردَ،

فاحذروني

لا بسيوفٍ تؤاخي النّعمةَ؛ لا بالصدىٰ ذاكَ، المُفَسِّرِ كَرَاوٍ ضجران؛
احذروني بالأبقىٰ،
احذروني بالمصادفةِ الثقيلةِ كردفِ الحمار؛
ولْتَأْنَس الحيلةُ إلى الحيلةِ آنَ يَسْكُنُ العَرَضُ إلى شمولِهِ، فالذي يُبقيني هكذا، مرمىً تسدِّدُ الحقيقةُ سهامَها المكسورةَ إليهِ، هو ذاته الذي يُبقي الفاجعَ المتألِّقَ في الدَّمِ المتألِّق، لا بحِيْطَةٍ تذكّركُم بالصدى المُفسِّرِ، أو بالقطيعةِ المشغولةِ من كثيفٍ يُروىٰ، بل من تهافتِ الفاني على سِحْرِهِ.

كلُّ هذا مدخلي إليكم بالبَرَمِ المُمْتَدَحِ، لأكتبَ الورقةَ الأولى، المسطَّرَةَ بحشْدٍ مُدَاهِنٍ؛ لأعبثَ بالورقةِ الأولى عبثَ المؤرِّخ يُحْيي بَهْلُوْلَةَ الأعمى؛ لأريكم ما ترونَه، بسيطاً حَيّاً، يُروى بكلامٍ تحسبونَهُ من مَرَاتِبِ المُشْكِلِ، لكنه نذيرُ الخَزَنَةِ الضالعيْنَ في تدبيرِ الرِّهانِ الذهبيِّ

الذهبيِّ

الذهبيِّ

الذهبيِّ،

في آنٍ يرقِّقُ الأرغفةَ،
متلمِّساً حطامَ الجهاتِ بلسانِهِ السُّمّاق.

والحقيقةُ ترقِّقُ أرغفتَها، أيضاً،
وهي تحفرُ، عميقاً، ذلكَ الأخدودَ المعدنيَّ لخُنْفُسائِها.
لكن البقاءَ الذي يمشي الحَيْدَىٰ، وسط فلولِهِ المضرَّجةِ بأكيدٍ كالحُمّاض، يلجمُ الصرخةَ الآتيةَ من هناك؛ من المُشْكِلِ المتَّزنِ إذ الهباءُ يقايضُ الرُّسُلَ بالجُباةِ، وتروِّضُ الكتابةُ الكَتَبَةَ بالفروقِ ذاتِها، المجلوَّةِ كمرايا يكلِّمُ الغدُ فيها وسيطَهُ المُفْتَضَحَ.

والذهبيُّ ذهبيٌّ.
رَضْفَةٌ ذهبيةٌ. غضاريفُ ذهبيةٌ.

فجاءَةٌ ذهبيةٌ . تَرْقُوةٌ ذهبيةٌ .
وَجْنَةٌ ذهبيةٌ . صُدْغٌ ذهبيةٌ .
حَرْقَدَةٌ ذهبيةٌ . عَضُدٌ ذهبيٌّ .
قُذَالٌ ذهبيٌّ . حَقْوٌ ذهبيٌّ .
صَفَن ذهبيٌّ .
عَقِبٌ وفَكٌّ ذهبيّان .
مشارفُ ذهبيةٌ ،
ونَسْلٌ يكمنُ للمعجزةِ بسهامِ الذَّهب .

هكذا الذهبيُّ المُفْتَضَحُ كقيامةٍ تتطاولُ على التَّدْبير .
هكذا المَلَلُ الحَرِدُ وهو يجرُّ الكمالَ إلى سُعاتِهِ .

فليبقَ معي الباقي .
ليبقَ المُثْخَنُ بالبداهةِ النحيلةِ كصديقٍ نحيلٍ .
ولتبقَ الطَّرَقَاتُ الكثيرةُ على الباب ، فحسبُكَ ، وأنتَ تَفتحُ ، تفتحُ لِبُراقِ المكيدةِ العذبةِ ، بأعضائكَ التي تتهاوىٰ شفقاً شفقاً ، كأنَّما أنذرتْكَ الأرضُ للبسـالةِ ، وأغضى عنكَ الموتُ فأنت تستوفي حيطَتَكَ بحرسٍ مذهولينَ . ليبقَ البـاقي . ليبقَ الـذي تنتـظرينه ، أنتِ ، يَتُها المتوسّلَةُ مثل الدُّلْب إلى الأعالي الشّعثاءِ . ليبقَ الذي تنتظرهُ يداكِ . لتبقَ الأقدارُ بحروفٍ لَمْ يُعَمَّقْ حَفْرُها على الصفيحِ المُهيَّأ لأزاميلِ العَبَثِ الشقراءَ .
أأمتحنُ البقيةَ بكِ؟
أأمتحنُ بكِ الصَّخَبَ الخَشِنَ كذهولِ أبٍ يُقَادُ إلى مَقْتَلِهِ؟
هي فداحةٌ تحزمُ الغياهِبَ ، والعنبُ يتحرَّى اللّمْسَةَ التي نسيتِها فوقَ يدي .

غير أنّي إنْ ذكرتُكِ ذَكَرْتُ الجدالَ بين المياهِ والألَقِ ،
وتحيَّنْتُ الذي أنا فيه ، بعد أن يكادُ يمضي بخطاطيفِ الذي مضى ؛

تحيَّنْتُ الأليفَ في قدومهِ الثقيلِ بأثدائِه الثقيلةِ، مومئاً كرمادٍ ساحرٍ إليكم؛ إلى الفـراغِ المُعَلَّق من رئتيهِ إلى شجـرةِ التِّين، هنـاك، حيثُ الرمـاةُ المتألِّقونَ، والثعالبُ النائمةُ في اليواقيتِ، والعدَّاؤونَ من نَزْعٍ إلى نَزْعٍ؛ حيث الأسرى الموثقونَ بسيُوْرِ المَرَحِ؛ حيث الحكايةُ كلُّها، المُتَفَيِّئةُ، في فَزَعٍ، إلى ساقِ الدَّلْبُوْثِ.

ليبقَ معي الباقي، إذاً،

حتى أريكم تُيُوْسَ الرسالةِ التي يبلِّغُها الأكيدُ إلى الأكيدِ؛

لأريكمُ النبوءَةَ المتسلِّقَةَ، كاللِّبلاب، أَبْهاءَ الإسمنتِ، ضاحكاً من الموعدِ المُعْلَنِ للقادمين بأسرارِهم إلى الملهاة.

وبي، أو بكِ (لا فـرقَ) سأمتحنُ السكـينةَ المُنْكَبَّةَ، هنـا، بأمشـاطِها على تسـريحِ الفـاجعِ ذي الذؤابـاتِ، متمتماً ما يتمتِمُهُ المأمولُ المُطَوَّقُ بالفضيحةِ أمام بـوّابَةِ الله، سكـرانَ مما يُشْغلني به القديمُ القديمُ، كأنني بكِ، أو بي، سأمهِّـدُ الفجـاءَةَ لاسترسـالِها حتى يَلْهَجَ الـزعفرانُ بأسمـاءِ الـريحِ، ويهـديَ النُّحَـامُ جناحيه إلى الخزامىٰ. مُتَفكِّراً بالـمُتَفَكِّـرِ فيَّ، يصلني الخشخـاشُ بيَقِيْنِه، ويزاحمُ الخَـرْدلُ بأعضائي ما يزاحِمهُ. والبقيةُ؟ بكِ، أو بي، لا فرقَ: يُنبِّئنا الـعَـدَمُ عنه إذا يميلُ إلى عُزلةٍ، وتتلكّأُ الـذُّرَةُ في سَـرْدِنا على الظـلالِ. بَلْهَ يَقُومُ البنفسجُ بتوضيحِ ما خَفِيَ مِنّا، ويَؤُمُّ بنا العُلَّيْقُ البـطرانُ أَلَقَـهُ الـدَّفينَ. والبقيةُ؟ للقـرنفـلِ شَكُّـهُ. للتـوتِ شَكُّهُ. للقُنَّبِ، للحَلْبُوبِ، للدِّفْرَانِ، للتَّنوبِ والـجُرَيْسِ، لنــا، لليَحْمُوْرِ النـازفِ على حجارةِ النبعِ، للقيـامةِ التي تتهيّأُ بأقنعتِها القِطانيَّةِ، للدّعاميصِ الطافيةِ على المـاءِ، للبتـولا، للطاووسِ الساهرِ على الكلمةِ، للقويِّ الخجولِ، للبَـوَّاقِ ذي النَّفْـخِ المالحِ، للبَقْسِ، للتَّنُوبِ، للجاوَرْسِ، للحنـدقوقِ الهـاذي، للفجـرِ الـذي يتلـوَّىٰ كالصِّلِّ قرب النعمةِ، لِلْبَلاذِرِ، للكتّـانِ، لليقينِ الراكضِ بجَلاجِلِ الفـراغِ، للغدِ شُكُوكُهُ.

هكذا: شُكُوكٌ على مرمى القَهْقهةِ؛

شكوكُ على مرمى الذَّهب.

ونحن ما نحن عليهِ: آسرانِ بالشتاءِ الذي يتوسَّدُنا عاصفةً عاصفةً، وإذْ نُدْعىٰ نَكُنِ الإطالةَ في إنقلابِ المُشْكِلِ إلى اتِّضَاحِهِ المُشْكِلِ.

والبقيةُ؟ هكذا: تشمُّ الأرضُ ظلَّها، متعرِّفةً إلى آثارنا فيهِ. فأيُّ احتدامٍ للمياهِ يشغلُ البقيةَ؟ أيُّ بُرْدِيٍّ يُغوي الخلودَ الأحمقَ؟ في حُبٍّ صاعدٍ أدراجَهُ سنهمسُ إليكم بالكلام الباقي لِشَفِيْعِنا؛ سنهمسُ المدينةَ، راكنيْن إلى التكوير الذي يجعلُ الأَبَعْدَ نُزْلاً، والنهايةَ حيلةً من حِيَلِ العيَّاريْن. وكما يتقنُ المعلومُ نَسْجَ فِتْنَتِهِ نُتْقِنُ الترويحَ عن الأزلِ الفَرَّانِ بالأقاصيصِ التي تَتَبرَّجُ بطحينها. وبي، أو بكِ (لا فرق) سنؤخِّر - بما في صلصالنا من حُوَاةٍ - دخولَ الرمادِ، المتبرِّم من مُنْشِدِهِ، إلى مَهَبِّنَا. سنتغامزُ، متمتمَيْن: «كثيفٌ يستدرجُ الكثيفَ. حِبْرٌ يُهرقُ الفضاءَ». وإذْ نستفيضُ في تدوير الأمر، كما يُدَوِّرُ المُمْكِنُ فظاظاتِهِ، نجعلُ البَقْسَ كنايةَ النهارِ المُتَأْتِيءِ، والعَصِيْفَ رَطَانَةَ الشَّكْلِ. لا. ثَمَّ دِفْرَانٌ يدوِّرُ المُشْكِلَ النباتيَّ أيضاً. ثَمَّتَ بُغامٌ حولَ البيانِ، وحَيُّوْتٌ يتقدَّمُ الأحناشَ الرقيقةَ، كَعُذْرٍ رقيقٍ، إلى كمينِ المُبْتَدَأ. ثَمَّتَ إطنابٌ مِنَ السَّحَرِ في التذكير بشعاعاته التي تُقايضُ الريحَ بالريح. ونحن على ما نحن فيهِ: فتوىٰ من النَّخلِ تُقَسِّمُ الرغيفَ المُحترقَ بين الأسرىٰ.

برتقالٌ، إذاً،
برتقالٌ هناك.
تَرَنْجٌ وعَرْعَرٌ.
حُمْحُمٌ رقيقٌ،
بُنٌّ وتفاحٌ،
عرينٌ من المرجَانِ،
هَمْسٌ يُبَهْرِمُ الأناملَ المظلَّلةَ،

فجاءةٌ كالقُنَّب،
فجاءةٌ كالقَيْنَةِ،
فجاءةٌ مِمْرَاحٌ،
فجاءةٌ كبصلِ الفأرِ،
كالموقدِ،
كالبَهْرمانِ،
كالدَّهْليةِ،
كَخَفِيْرٍ؛
فجاءةٌ هناك،
وبَقْلٌ،
وخُبّازَى،
وجُلُّبَانٌ،
وأكاسِرةٌ يضربونَ الخيامَ قربَ الحقيقة،
وقَسَمٌ مرفوعٌ من الأمومةِ كلِّها لَتُبَعْثِرَنَّ الخَفِيَّ.

إذن، هناك الذي هناك:
هَبَّارٌ يقفزُ من أثرِ اللهِ إلى أثرِ الله.

ونحن ما نحن عليهِ: آسِرانِ بالشِّبَاكِ المقطَّعَةِ من نَزَقِ جَمَالِها،
فلا ينتظرنَّنا أحدٌ؛
لا ينتظرنَّنا أحدٌ.
ولا ينشَغِلَنَّ الهواءُ بوسيطهِ التائهِ في الجمادِ،
فالمكانُ واحدٌ،
والأنينُ واحدٌ،
والرئةُ التي تنفخُ زفيرَها المتعدِّدَ رئةٌ واحدةٌ.
لكننا نرنو إليكم بالشهيقِ الأعلى في الرئاتِ؛
إليكم،

أنتم المتَّصلينَ بالمُعْضِلِ الموحِّدِ،
كأنَّما نوسِّطُ الجمادَ في قريْظٍ سَيُتْلَى،
أو نردِّدُ البيانَ ذاكَ، المشغولَ بقلمٍ ذي صرير.

أهناك، إذاً، غيرُ الذي هناك؟
يُعادُ البرقُ إليكَ؛
تُعادُ الهبَةُ المتملْمِلَةُ، كالنَّمِرِ، إليكَ؛
تعادُ، أَنتَ، إليكَ، مُمَهَّداً كتآليفَ ينجزُها حَلاَّقٌ أعمىٰ.
وأنتَ ما أنتَ عليهِ،

تحلجُ البراهينَ، مداهماً ما يليكَ، وما يسبقُكَ، بمطرٍ مغسولٍ وشهوةٍ مغسولةٍ، فارتجلْ قليلاً، بكَ أو بها، قصدَ المكانِ، وخُذْ متاعَكَ المُبَعْثَرَ بين الأقفال.

وامسحْ، بأناملَ من غَلَبَةٍ، ذلكَ الغبارَ الرقيقَ عن عانةِ النهايةِ، ثم اهدأْ:

بكَ، أو بها (لا فرقَ) ستعمِّمُ العَجَلَةُ حُمَّىٰ مَرَحِها، وستختلفان، ببطشِ الحقيقةِ التي جعلتْكما اثنين، فيميلُ أحدُكُما إلى عَرَضٍ والآخرُ إلى عَرَضٍ، متوازييْنِ في مدى الألمِ ذاتِهِ، الذي يَعِدُ الجوهرَ بخزائنَ مَنْهوبةٍ.

وكذا أنت،
يُعادُ البرقُ إليكِ؛
تُعادُ الهبةُ المتململَةُ، كالسُّنجاب، إليكِ؛
تُعادين، أنتِ، إليكِ، مرتعدةً من رَحَىٰ النعّمةِ التي تطحنُ الأعراسَ.
وأنتِ على ما أنتِ عليه:

تضربين الخاتمةَ بمراوحِ الأنثويِّ، مُنْسَلَّةً كَوَسْوَسَةِ الحِليِّ إلى المُشْتَهى، فارتجلي قليلاً، بكِ أو بهِ، ما يُسَطِّرُ الموتُ على العظامِ الكبيرةِ؛ ارتجليْهِ، هو، نُخاعاً نخاعاً؛ وارتجليهم جَمْهَرَةً جَمْهَرةً، إذ يبايعون غدَهم بالأساريرِ المُتْقَنةِ لِقَتْلٍ مُتْقَنٍ.

أهناكَ، إذاً، غيرُ ما هناك؟
أَفَرْقٌ أكثرُ مِمَّا تنسجُ الفروقُ الكسولةُ؟

يا أنتما، أيها العابثان كَعِلْمٍ، اتركانا وشأنَ الفراغِ هذا، الأسير كالفُكَاهَةِ؛ اتركا الوحدةَ تتأمّل الخرزةَ الثقيلةَ في العِقدِ الثقيلِ، وانْحَدِرَا بمخالبِ الفجاءَةِ وزينَتِها إلى السَّطْرِ الأشَدِّ مَلَلاً في اللّوحِ الذي تغمضانِ عيونكما عليهِ، هناكَ، في الفروقِ الذّهبيةِ للظّلام.

واشهدا أنّنا نقضمُ الثمرةَ الأخيرة، قبل انحدارنا ـ مثلكم ـ إلى أَزَلِ النُّوْرِ الأعمى.

أَثَمَّتَ وَجْدٌ آخَرُ يدلُّ المكانَ على أبارِيْقِنا؟

ذهبيٌّ،
ذَ
هَـ
بِـ
يٌّ هذا الرِّهانُ،
والخَزَنَةُ يَتَدَبَّرُوْنَ خُصُوْمَةَ الرُّوح.

١٩٨٦

انتقام

أ

المعاطفُ كلُّها هناك.
الرياحُ كلُّها هناك.
الخطى الغائصةُ في الثلج، والثلجُ كلُّه هناك.
القناديلُ، والبيوتُ، والأشباحُ الاخيرةُ، كلُّها هناك.
فاجمعْ بيديك الأليفتين مـا تـتّسعان من كمالٍ،
واجتهدْ أن يكونَ المشهدُ صداكَ الأليفَ.

ب

بَرَمٌ كطبائع الصّباحات يُشْغِلُ القادمينَ الى نهايتي، وأنا، في نَزْعي تحت الشّباكِ الكبيرةِ، أُعلّق المكان ـ كسراويلِ سجينٍ ـ على الحبلِ ذاكَ، الرقيقِ، الممتدِّ من أوّلِ الملهاةِ إلى أنينكم.

جـ

وفْرَةُ الهباءِ أنا، والمشيئةُ ظنيٌّ.

د

الغضبُ إشارةُ الليلِ، والماءُ فكرةٌ تتقدَّم كمالَـها.

هـ

كحذاءٍ يلتمعُ صِباغُهُ،
كمقبضِ بابٍ من نِيْكلٍ :
هكذا صرختُك.

مفردات

النهار: غضبٌ يتخفى في قناع الهواء.
الريح: خطوة الكلمة في اتجاه سرها.
الصوت: خراب الشكل.
الحنين: ذهب منثور على مخمل النهاية.
الفضاء: مشكل الضوء.
العدم: فكاهة الظلال في مجلسها المضجر.
الكتابة: بطش يمتحن المنسي.
الرقم: حصيلة العبث.
الثمر: برهان الشجرة على ماضٍ يضلل كل برهان.
القناع: أنين الظاهر.
المسافة: لهاث معاد.
الاكيد: تمتمةٌ في الجهة الاخرى.
القيامة: طفولة تؤكد العقل.
الذهب: عراكٌ في خان.
الحياة: طلقة من ذهب
أما انت ايها المقيم في الخاتمة، فلا تسرحَنَّ طويلاً لئلا يبرد العشاء.

نيقوسيا - ١٩٨٦

صدر للمؤلف

كل داخل سيهتف لأجلي وكل خارج أيضاً	(شعر)	١٩٧٣
هكذا أبعثر موسيسانا	(شعر)	١٩٧٥
كنيسة المحارب	(يوميات)	١٩٧٦
للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك	(شعر)	١٩٧٧
الجمهرات (في شؤون الدم المهرّج، والأعمدة، وهبوب الصلصال)	(شعر)	١٩٧٩
الجندب الحديدي	(سيرة الطفولة)	١٩٨٠
الكراكي	(شعر)	١٩٨١
هاته عالياً، هات النفير على آخره	(سيرة الصِّبا)	١٩٨٢
فقهاء الظلام	(رواية)	١٩٨٥

سليم بركات

بالشباك ذاتها بالثعالب التي تقود الريح



دار الكلمة للنشر تلفون 803740 ـ ص ـ ب 5288 / 13 ـ بيروت لبنان